القداس

للكردينال ڤون رئيس أساقفة وستمنستر

يليه

الفرح والسلام

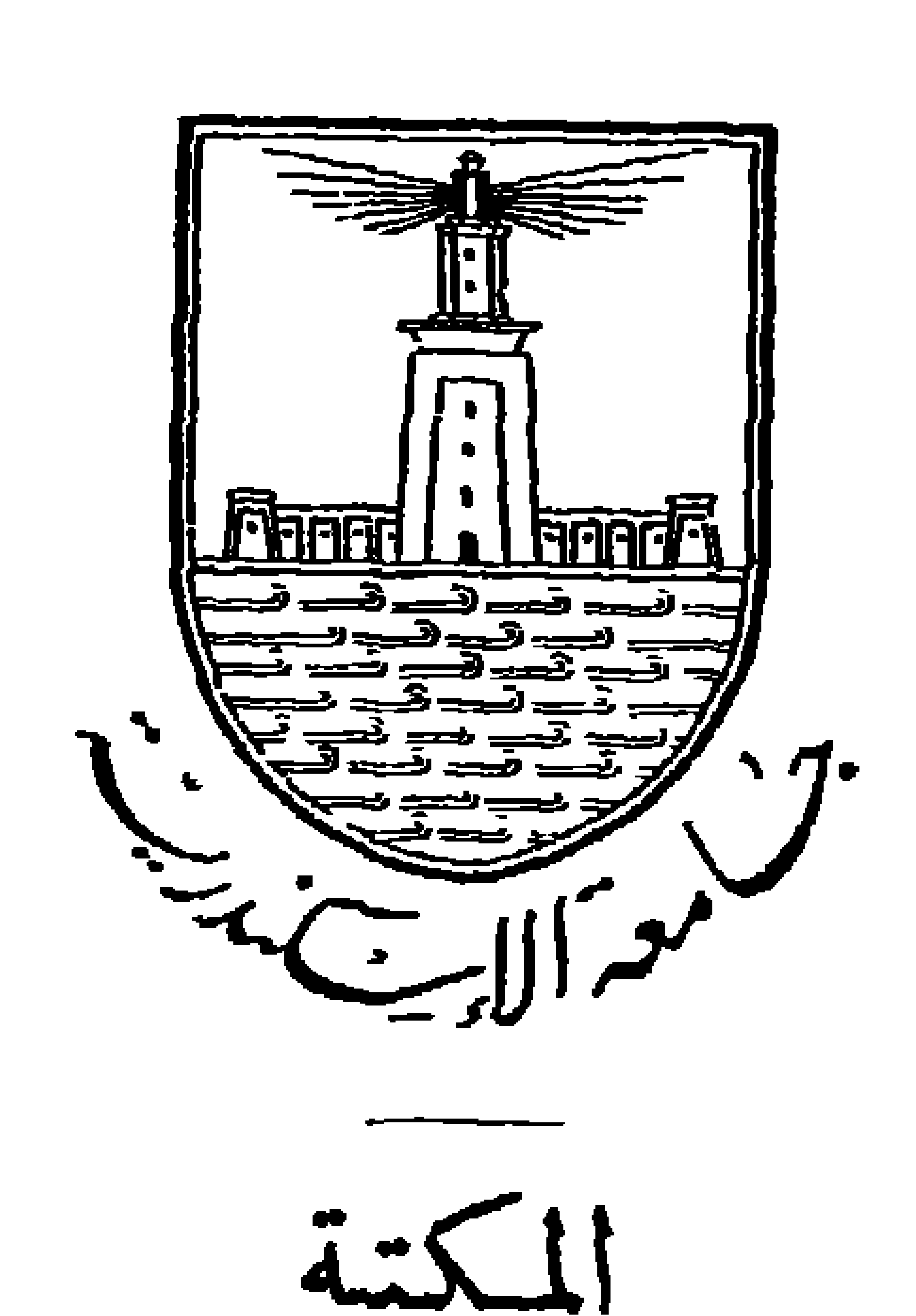
للأب فوش اليسوعي

نقلهما إلى العربية

الأب ج. عقيقي اليسوعي

منشورات المعهد

المعادي



القداس

للكردينال ڤون رئيس أساقفة وستمنستر

يليه

الفرح والسلام

للأب فوش اليسوعي

نقلهما إلى العربية

الأب ج. عقيقي اليسوعي



منشورات المعهد
المعادي
مديرية الأمن

إلى النفوس الحارّة

ألوف من المسيحيين الطيبين ، وخاصة بين من يكسبون عيشهم بعرق جبينهم ، يستحيل عليهم — مع الأسف — أن يسمعوا القداس ، يوميًّا . فأوصى مثل هؤلاء أن يمارسوا ما جاء فى الفصل ٢٠ من هذا الكتاب .

الكردينال ڤون *VAUGAN*

القدّاسُ

تقدمة

إلى أبناء أبرشيتي

قدّمت لكم العام الماضي كتيباً في حب آلام يسوع المسيح . وأدعوكم هذا العام، بعاطفة الحب نفسها ، تقديساً لنفوسكم ، أن تطالعوا هذه الصفحات في ذبيحة القداس .

إن هذين الموضوعين : موت الرب والقداس ، هما شيء واحد ؛ لأن ذبيحة الصليب وذبيحة المذبح ذبيحة واحدة من حيث المقرب الإلهي والضحية المقربة .

يقول القديس توما واللاهوتيون ، فيما يخص مجد الله : إن قداساً واحداً يؤدي للثالوث الأقدس إكراماً أعظم من إكرام جميع الملائكة وقديسي السماء كافة . ويقول القديس بونافنتور فيما يختص بتقديس النفوس : إن الله يمنح العالم من المواهب في كل قداس ما منحه إياه عند التجسد .

فيكفي أن نفتكر في هذه الأمور ، حتى نبكي دماً — والقديسون أنفسهم لو قدروا لبكوا مثلنا — عند رؤية ما يخسره البشر كل يوم ، بجهلهم قيمة القداس . وكم بين الكاثوليك أنفسهم من الباردين والفاترين ، لأنهم ما حاولوا قط أن يكوّنوا لهم فكرة صحيحة في الذبيحة الإلهية ، ولا خطر ببالهم أن القداس هو العمل العظيم . العمل المركزي لعبادة الله على الأرض ، فهو يجمع الخلق جميعاً في عاطفة سجود وشكر لا حد لقيمتها ؛ ويُجري من الجلجلة على جميع المشتركين به بإيمان وعبادة فيوضاً

من الخيرات لا تحصى . فهناك غفران الخطايا، وترك العقوبات الزمنية المترتبة عليها، وزيادة النعم الروحية وكل نوع من البركات الروحية والزمنية .

كتبت هذه الصفحات من أجلكم ، يا أبنائى الأعزاء ، لكى أعاونكم على اكتساب فكرة سامية وصحيحة فى ذبيحة القداس المقدسة . فاستعينوا بكل ما يمكنكم من الوسائل لتلهموا من حولكم احتراماً عظيماً للقداس، وحباً قلبياً . كونوا رسلا للقداس بين أصدقائكم .

ليس هذا الكتاب الصغير كتاب مناظرة ومجادلة ، إنما هو كتاب تقوى وعبادة لاستعمال أناس مسيحيين . ولكن ، لا تكون التقوى دائمة ومتينة ، وغير عابرة ، إلا إذا اعتمدت على العلم والمعرفة ؛ ولذلك اجتهدت فى الصفحات التى تطالعونها أن أضع تحت نظركم ، بعبارة بسيطة ، تعليم آباء الكنيسة وعظماء اللاهوتيين من القديس توما الأكوينى ، وسواريز ، ولسيوس ، والكرادلة لوغو ، وبونا ، وفرنزلين .

عسى الله يمنحكم النعمة حتى تقدروا القداس الإلهى حق قدره . وتحضروه غالباً كلما قدرتم .

إن من يحضر القداس كل يوم يموت ميتة صالحة .

خادمكم وأبوكم المخلص

هربرت أسقف سلفورد[1]

---

(١) لما ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب لم يكن المطران ڤون قد ارتقى إلى الرتبة الكردينالية ورياسة أسقفية وستمنسر .

ذبيحة القداس المقدسة

الفصل الأول

ذبيحة القداس هى فعل لا صورة صلاة بسيطة

١ ــ إن ذبيحة القداس هى أسمى فعل إلهى احتفالى فى الديانة المسيحية ، وأعظم ما يمكن أن يتم على الأرض من الأفعال . وما هو بأقل من تقدمة يسوع نفسه ضحية لله من أجلنا نحن البشر .

القداس فعل ، لا صورة صلاة بسيطة، فهو يختلف جوهرياً عن صور العبادات الأخرى جميعها : كصلوات الصباح والمساء ، وصلاة الوردية وغيرها .

٢ ــ جلّ غايتى من هذا الكتيب الاهتمام بالجوهر ، وبروح هذا الفعل : فعل العبادة العظيم ، وبيان فوائد ذبيحة القداس ، وطريقة حضورها . أما الأمور الخارجية كالشموع والطقوس ، فإن هى إلا كالملابس فى بلاط الملوك، لايقوم بها حضور الملك ولا حياته ولا شخصه .

٣ ــ الذبيحة تقوم بتقديم ضحية ، ذبحاً ، أو إفناء ، أو بتغيير

ما يعدّ موازياً لذلك. وغاية هذه الذبيحة الاعتراف بسلطان الله السامى على جميع الخلائق ، والاعتراف بعلاقتنا المطلقة به .

ويجب أن يكون مقدّم الذبيحة شخصاً معيناً لذلك، شرعاً ، ولا يمكن تقديمها إلا لله وحده .

فترى من هذا أن الذبيحة ليست صلاة عادية ، بل هى فعل احتفالى مقدس يقوم به كاهن .

ولا بدّ لتتميمه من آلة . فإبرهيم أخذ معه لذبيحته سكيناً وحطباً . وهكذا جميع ذبائح العهد القديم ؛ وذبيحة الصليب لم تكن لتتم إلا ببعض الآلات . أما القداس ، فلا يحتاج إلى سكين ولا إلى نار ، ولا إلى أية آلة مادية ، بل إلى بعض كلمات مقدسة عينها المسيح نفسه وهى تقوم مقام السكين . فيقول القديس بولس فى رسالته إلى العبرانيين (ف ٤ : ١٢) : « كلمة المسيح أمضى من كل سيف ذى حدين » . والقديس غريغوريوس النزينزى فى (رسالته ١٧١) إلى كاهن : « لا تغفل أن تصلى من أجلنا ، ولتكن سفيرنا حقًّا ، عندما تنزل كلمة الله على المذبح ، بكلمة ، مستخدماً صوتك كسيف فتفصل (عند التقديس) بضربة غير دموية جسد الرب ودمه » . فليس فى هذا جميعه أية صعوبة على مسيحى يؤمن أن الله بكلمة قد خلق كل شىء ، وأن كلمته كلمة كلية القدرة .

فحسب الحضور أن يريدوا مشاركة الكاهن بحضورهم الشخصى

أمام المذبح ، وبإيمانهم بالذبيحة وعبادتهم ، دون احتياج إلى سماع الكلمات التي يلفظها عند التقديس .

٤ — إن الكردينال نيومن قد أوضح هذه الأمور جميعها إيضاحاً بديعاً إذ قال : « ليس القداس صورة من الصور . هو فعل عظيم ، بل أعظم ما يمكن أن يتم على الأرض ، ولا هو ابتهال إلى الله فحسب ، بل هو استدعاء للأزلي . فيحضر بجسده ودمه ولاهوته على المذبح من تنحني الملائكة أمامه . وترتعد الشياطين من ذكره .

« فالكلمات ضرورية ، كواسطة لا كغاية، لأنها ليست توسلات موجهة إلى عرش النعمة، إنما هي آلات لشيء أعظم ، آلات للتقديس ، للذبيحة ، تمر كما يمر كل شيء سريعاً ، وعليها قوام جميع الأجزاء في عمل واحد . تمرّ سريعاً لأنها كلمات الذبيحة العجيبة ، كما يقول الكتاب : " ما أنت صانعه فاصنعه عاجلا". وجميع من يحيطون بالمذبح ، وكل واحد في مكانه، يستعدون للحدث العظيم " منتظرين اضطراب الماء " . كلنا في محلنا ، بقلوبنا ، وأفكارنا ، واحتياجاتنا ، ونياتنا ، وصلواتنا ، منفردين ، غير أننا متحدون ، ومنتبهون إلى عرض الذبيحة ، ومتحدون في تتميمها ، فنأخذ نصيبنا فيما يصنع كاهن الرب ، ونرافقه — لا بجهد وتعب — بل مثل موسيقيين يتفقون وإن اختلفت آلاتهم ، ويؤدون لحناً واحداً رخيماً » .

(نيومن : خسارة وربح)

الفصل الثانى

كهنوت يسوع المسيح

١ ــ القداس ، كما مرّ ، هو أكثر من صلاة بسيطة ؛ إنه فعل غير متناه عظمة وأبهة ، هو فعل الذبيحة .

لنبحث الآن عمن يقوم حقًّا بهذا الفعل المقدس ، من هو الكاهن مقدم الذبيحة ؟ فإن قلتم : « هو الأب فلان الذى نعرفه ونألفه » ــ قلت لكم : إنكم مخطئون كل الخطأ ، وإنكم تجهلون مقدم الذبيحة الأكبر .

فمن الإيمان أن مقدّم القداس الأول ، والكاهن الأعظم ، هو يسوع المسيح . ولكى تفهموا هذه الحقيقة ، ها إنى أشرح لكم كهنوت يسوع المسيح ، فيسهل عليكم بعد ذلك أن تفهموا حضوره ككاهن أعظم فى القداس .

٢ ــ الكاهن ، فى اعتقاد البشر عامة ، شخص منتدب للقيام بين الله وبين الشعب . فعليه لذلك نوعان من الواجبات : بعضها نحو الله والأخرى نحو البشر . وهو ، فى كل ما يتعلق بوظيفته ، وسيط بين الإنسان وبين الله .

هو ، أولا ، مندوب لكى يقدّم لله هذا الفعل السامى ، فعل العبادة ،

خارجياً وعمومياً ، وهو يقوم بالذبيحة التى لا تحق إلا لله وحده . فعلى جميع الناس أن يقدموا لله واجبات السجود ، والشكر ، والاستغفار ، والتوسل . وهذه هى غايات الذبيحة الأربع .

وعلى الكاهن ، فوق ذلك ، واجبات إيجابية نحو البشر : أن يعلمهم كل ما يمس خدمة الله وخلاص نفوسهم ، وأن يقدسهم ، ويساعدهم بحسب طبيعة كهنوته ، وبما قبله من الله لهذه الغاية .

فينتج من ذلك أن كل ما يتصل بعبادة الله وبخلاص النفوس يختص بالكهنوت ، ولكن العالم فى كبريائه يثور على هذه الحقيقة ، ويسخر بالسلطة الكهنوتية ويحتج على كل وسيط بينه وبين الله . ويظهر أنه يجهل أن لله الحق — لا للإنسان — أن يقطع فى هذه المسألة .

أفلا نرى أن الجماعات البشرية ، تنتخب لها دائماً ، فى شئونها السياسية والوطنية ، ممثلين عنها ، يعملون باسمها ، فيكونون كوسطاء بين الشعب وبين السلطان ؟ ففى هذه المقابلة بين الطبيعة والنعمة ما يخزى روح الثورة فى الإنسان .

٣ — لقد كان للبشر منذ البدء كهنة يقدمون باسمهم ذبائح ، ويعلمونهم شريعة الله . كان هناك كهنة ، عهد الشريعة الطبيعية ، وعهد شريعة موسى ، يقدمون الذبائح ويقومون بالتعليم . ولما جاء المسيح إلى العالم ، حصر فى شخصه وظيفة الكهنوت كلها . ولن يعرف الله منذ مجيئه إلى نهاية الدهور كهنوتاً آخر ، ولا ذبيحة أخرى ، ولا تعليماً

آخر غير كهنوت يسوع المسيح وتعليمه .

وإن من الإيمان أن الرب يسوع هو كاهن بملء المعنى الحرفى لهذه الكلمة . وتحديد القديس بولس للكهنوت فى رسالته إلى العبرانيين يتحقق تماماً بشخص المسيح : « إن كل حبر متخذ من الناس يقام لأجل الناس .. فيما هو لله ليقرب تقادم وذبائح عن الخطايا » (عبرانيين ٥ : ١) . . .

إن معلمنا الإلهى ، وإن كان حائزاً على الطبيعة الإلهية منذ الأزل ، لقد اتخذ ، فى الزمان طبيعة بشرية كاملة . « اتخذها من بيئة بشرية » لأنه قد ولد من المرأة . فهو ابن الطوباوية مريم العذراء . فكهنوته يعتمد على طبيعته البشرية ، لا على طبيعته الإلهية ، وهو بهذه الطبيعة البشرية المقدسة نفسها قد مارس ، ويمارس ، وسيمارس إلى منتهى الدهر ، وظائفه المقدسة .

٤ — من سام المسيح كاهناً ؟ وأين ؟ وكيف كرّسه ليكون وسيطاً بين الله والبشر ؟ لا شك أن فى هذه الأسئلة فائدة جلّى .

ما من يد استقرت على رأس المسيح قط ، ولا مسحه أحد مسحة أرضية ، ولا تمجّد بكونه صار رئيس أحبار . إنما نال كل هذا ممن قال له : « أنت ابنى ، وأنا اليوم ولدتك ! » ، كما يقول فى موضع آخر : « أنت كاهن إلى الأبد على رتبة ملكيصادق » (عبر ، ٥ : ٥) .

هو الله نفسه سامه كاهناً ، بدون تدخل أى إنسان أو ملاك .. فى ساعة سكون عجيب ، عند ما تجسد فى حشا البتول المباركة ، وقد

قالت : « فليكن » سكب اللاهوت على طبيعته البشرية ملء السلطة الكهنوتية ، وصار بذلك رأساً ، وممثلا وكاهناً لجنس البشر ؛ ليرعاهم ، ويعلمهم كل ما يخص الله ، ويقدّم للثالوث المعبود ، باسم هؤلاء البشر ، ولأجل خلاصهم وسعادتهم ، ذبيحة تمحو الخطيئة ، وتؤدى له تعالى ما يليق بجلاله من أفعال العبادة والشكر والتكفير .

قال القديس كيرلّس : « دُعى المسيح مسيحاً لأن الله أقامه كاهناً ، ودعى يسوع لأنه كان مختاراً ليكون لنا مخلصاً » .

٥ — المسيح يملك ، باتحاد ناسوته بالطبيعة الإلهية وأقنوم ابن الله ، يملك سلطاناً مطلقاً ، لا حد له من السلطة والسمو . ومن أجل هذا لا يمكن أن يشاركه أحد بكهنوته ؛ فقد أوحى تعليمه حينما شاء وكيفما شاء ؛ ونظّم الكنيسة كما شاء ؛ وأذاع شرائعه كما شاء ؛ ورسم أسراراً وموارد نعم كما شاء ؛ وقدم ذبيحة العشاء الأخير وذبيحة الصليب كما شاء ، لتؤتى الثمار التى شاء ، ومنح الناس من سلطته الكهنوتية بقدر ما شاء . ويقول القديس بولس : كأنّ كهنوته « أعلى من السماوات » (عبرانيين) والقديس يوحنا : « نحن كلنا أخذنا من امتلائه ونعمة مكان نعمة » . وقال هو عن نفسه : « لقد أعطيت كل سلطان فى السماء وعلى الأرض » .

الفصل الثالث

يسوع كاهن القداس الأول

١ — يسوع هو الكاهن الأول ومقدّم القداس ، لا لأنه هو واضع القداس فحسب ، ولا لأن قيمة القداس ، وقوته ونعمته آتية منه ومتعلقة به وحده ، ولكن لأنه وحده كفء لأن يقدمه تقدمة كاملة قاطعة .

فلا بد من أمرين لممارسة وظيفة الكهنوت ممارسة كاملة : أولا ، أن يكون لدى الكاهن سلطة على التضحية ، وأن تتم بإرادته . ثانياً ، أن يقدم الذبيحة لله ، بعد انتدابه شرعيًّا لذلك .

ويقتضى القيام بالتضحية أو بالتقديس عمل القدرة الإلهية . فتلك أعجوبة فوق طاقة أى إنسان أو مخلوق . وقد شاء الله أن يتخذ ناسوت الابن الأزلى المقدس آلة لإحداث هذه المعجزة ، « وحسن لديه أن يجعل المسيح بناسوته كاهناً مقرباً للذبيحة إلى منتهى الدهر » .

هكذا يكون المسيح الكاهن الأعظم ، وإن يكن قد تنازل واتخذ الرسل وخلفاءهم كهنة وخداماً . وقد فعل هذا لكى تبقى ذبيحته دائمة منظورة ، « كما تقتضيها الطبيعة البشرية » .

فالمسيح نفسه ، كما تعلمنا الكنيسة ، يقدم الآن ذبيحته بواسطة الكهنة .

وكلمات التقديس يلفظها الكاهن باسم المسيح ، لأنه المضحى الأصلى ، لا باسم المضحى الثانى المتصرف كالممثل الرسمى للمسيح .

يقول سواريز : عند ما يلفظ المحتفل بالقداس كلمات التقديس ، يفعل ناسوت ربنا المقدس معجزة الاستحالة .

٢ — ويصرح الآباء بأن المسيح يدعى بكل صواب « الكاهن الأبدى » لأنه تعهد تعهداً أبدياً بأن يقدم ذبيحة القداس .

والقديس بولس ، فى بيانه للعبرانيين ما بين كهنوت العهد القديم وكهنوت العهد الجديد من الفرق ، يقول : كان فى الشريعة القديمة كهنة كثيرون يقدمون كثيراً من الذبائح ، أما فى الشريعة الجديدة ، فلا يوجد إلا كاهن واحد وهو « كاهن إلى الأبد » لا خلف له ، بل له ممثلون . وهذا الكاهن هو المسيح .

لهذا يقول أيضاً : إن إحدى علامات الشريعة الجديدة تقوم بأن المسيح هو نفسه يواصل عمله ككاهن أصلى ، وإن يكن قد اتخذ له شركاء فى كهنوته ، وكلاء ثانويين .

وما قام من الاختلاف بين تعدد الكهنة فى الشريعة القديمة والكاهن الواحد فى الشريعة الجديدة يبين لنا بكل وضوح التعليم المسيحى فيما يتعلق بالقداس ، فنفهم منه أن عندنا ذبيحة واحدة وكاهناً واحداً أعظم : يسوع المسيح .

ويعلمنا المجمع التريدنتى (فى جلسته ٢٢) أن قيمة ذبيحة المذبح لا يمكن أن تفسد بفساد من يقدمونها أو بعدم كفايتهم . وذلك لأن

المسيح لا غيره هو المقدم الأصلى وكاهن القداس .

وقد توقف دائماً قبول الله للذبائح على استحقاق مقدمها الأصلى . « فقد كره الله » غالباً فى الشريعة القديمة « ومقت » ذبائح الكهنة لعدم استحقاقهم . فهذا لن يمكن أن يحدث فى الشريعة الجديدة ، لأن المسيح هو المقدم الأصلى للذبيحة لا شخص خاطئ .

يقول القديس يوحنا الذهبى الفم : « عندما تشاهدون الكاهن يقدم ذبيحة القداس ، فلا تنظروا إليه نظرتكم إلى المحتفل الحقيقى ، بل انظروا إلى يد المسيح المرفوعة فوق الهيكل وإن تكن غير منظورة » . ويقول القديس أغسطينوس : « إن المسيح هو مقدم الذبيحة وهو الذبيحة أيضاً » .

والعالم « ألكوين » يردد فيما كتبه فى الجيل الثامن صدى المسيحية كلها : « إنى ، وإن كنت أشاهد بعينى جسدى الكاهن يقدم على مذبح الله خبزاً وخمراً ، فإنى أرى بعين الإيمان ، وبنور النفس الواعية ، وبكل تمييز ، الكاهن الأعظم والحبر الحقيقى ، يسوع المسيح ، مقدماً ذاته . فهو ولاشك الكاهن والذبيحة . فذبيحة الفداء ليست ، فى زمان أو فى مكان ، منقوصة ولا مزيدة ، ولا مقللة ، ولا مبدّلة ، أكان الكاهن الذى يقدمها قديساً أو غير أهل لها » (مجموعة مين ص ١٨٨٧) .

٣ — وفى مجموعة إيحاءات القديسة جرترود خبر رؤيا عجيبة رأت فيها هذه القديسة ربنا يسوع المسيح يحتفل بالقداس .

ويظهر أن الله قد شاء أخيراً أن يقدم برهاناً جلياً على حبه لخياطة طيبة من أبرشية لاروشل ، اسمها مارى أوستل هارپن . فقد جمع رسائلها

الكردينال ويلكور ، ونشرها كما تمني قبل وفاته . وقد جاء فى إحداها : أنها بينما كانت تتأمل فى الذبيحة المقدسة أمامها ، إذا بها ترى ربنا نفسه محل الكاهن يقدم لله ، بمنتهى الجلال ، الذبيحة المقدسة ، وكانت تلك الذبيحة إياه نفسه .

فصاحت فى ذهولها : « إله يقدم نفسه لإله ، يالها من ذبيحة ! لا يقدر ذهنى أن يفهم هذه العظمة . وقد كان ذلك ، خاصة ، وقت التقديس . فامتلأت روحى احتراماً وحباً ، ورؤية هذا الإله الإنسان يقدس جسده ودمه أوعبنى فرحاً وسعادة . فبأى شره كنت أتشوق إلى تلك اللحظة التى يوافينى فيها حبيب نفسى ويعطينى خبز الملائكة ، هو بنفسه يعطينى ذاته ! ورأيت روحين سماويين يخدمانه وقت القداس » .

٤ — لا تخدعك حواسك ، لا تظن أن المحتفل الذى تراه وتعرف اسمه ، وصوته ، وهيئته هو الكاهن الأصيل الذى يقدم الذبيحة . فهناك آخر يراك ولا تراه ، ويسمعك ، وإن كنت لا تسمعه . وهو يقوم بعمل شخصى ؛ وليس وكيلا ولا آلة للألوهة الجامدة ، بل إنه يقدم الذبيحة بملء معرفته الإنسانية ، مستخدماً عقله البشرى وإرادته البشرية . ويقدم هذه الذبيحة للثالوث الأقدس ، بلا جهد ولاتعب ، ومتى فهمت هذه الحقيقة الجوهرية ، أن يسوع المسيح على المذبح هو الكاهن الأصيل ، زالت الصعوبات كلها وسهل الإيمان .

فميلاد يسوع ، وحياته ، وموته ، وقيامته تثبت أن معجزات حبه أبعد من أن تكون أموراً استثنائية إنما هى شريعة كيانه الجوهرية ؛

الفصل الرابع

ذبيحة القداس الإلهية

١ ـ لو أن أحداً أكد لك أن يسوع المسيح ينتظرك فى مكان كذا، على مسافة كذا من دارك ، فبأى سرور ، وأمل ، ونشاط ، كنت تسعى إلى لقائه؟! لكنت تنهض ، قبل نصف ساعة من موعد نهوضك من النوم ، وتتعجل فى تناول فطورك ، ولا تضيع دقيقة من وقتك ، وأنت تحسب ذلك أمراً يسيراً ، مقابل مثل هذه السعادة ، وأن تكون عنده فى الساعة المطلوبة .

فكيف لا تمضى ، كل يوم إلى القداس ، وأنت تعلم أن يسوع يقدم ذاته كل يوم ضحية عنك . كان واجباً ألا تحسب هذا الانزعاج إلا حرماناً يسيراً .

إن حضوره فى القداس كاهناً هو فعل حب عجيب ، ولكن هناك لجة حب أعمق : فهو ليس فى القداس كاهناً فحسب بل هو الذبيحة أيضاً .

يقول القديس أغسطينوس : « من هو الكاهن ، سوى من دخل قدس الأقداس ؟ ومن الكاهن غير هذا الكاهن الأوحد الذى كان

ضحية وكاهناً ؟ فحين لم يجد فى هذا العالم الفسيح شيئاً بالغاً النهاية من الطهارة والنقاوة يقدمه ذبيحة لله ، قدم نفسه .

« اللهم ! حين لم يكن بين الخلق من يمكنه أن يقدّم للجلال الإلهى عبادة وافية ، ولا كان فيهم من يستطيع أن يرضى عدلك غير المتناهى ، عن خطايانا ، ولا كانت هناك ضحية تقدر أن تدفع ثمن فدائنا ، لبست أنت طبيعة بشرية ، وتقدمت بنفسك ضحية عنا .

« لم ترض بالمحرقات ولا بذبائح الخطيئة ، ولكن ألبستنى جسداً : فحينئذ قلت : هأنذا آت لأعمل مشيئتك (عبر ١٠ : ٦) فهل يمكن تصور دليل أشد صدقاً على الحب السخىّ من هذا الدليل ؟ »

٢ ـ لعلكم تسألون الآن : كيف ؟ وبأية طريقة يكون يسوع المسيح ضحية فى القداس ؟ لا بدّ لفهم هذا من التذكر أن ليسوع المسيح طريقتين مختلفتين فى الحضور .

أولا ، له طريقة وجوده الطبيعى فى السماء حيث تتمجد كل جوارح جسده المقدس وقوى نفسه فى عيون المختارين . فإن نور المجد الصادر من ناسوته يغنى السماء عن الشمس ، كما جاء فى رؤيا القديس يوحنا : « ولا حاجة للمدينة إلى الشمس ولا إلى القمر ليضيئا فيها ، لأن مجد الله أنارها ومصباحها الحمل » (رؤيا ٢١) . فالتأمل فى مجده ، والتحدث إليه ، والاتحاد به : ذلك للطوباويين .

فرح لا يحدّ ، وبهجة لا توصف ،
وحياة لا تفنى ، وسلام وحب ،
وغنى لا ينفد ، وسعادة بلا وزن ولا مقياس .

(دانتى ، الفردوس ، نشيد ٢٧)

ولكن له طريقة وجود ثانية اخترعها حبه لنا ، وتدعى طريقة سرية . فكلمة قربانة تعنى حرفيًّا ضحية مقدسة . وهى تحدد حالة الرب .

ولا حاجة لتتميم الذبيحة إلى إبادة الضحية أو ذبحها حقًّا ؛ فيكفى تبديل حالتها تبديلا يعرفنا قدرة الله المطلقة وسلطته السامية ، تبديلا يمكن اعتباره فى نظر الناس عموماً مساويًّا للإبادة .

ولذلك ، فبقوة كلمات التقديس ، يكون المسيح بطبيعته الإنسانية والإلهية حاضراً على المذبح ، حقيقة وجوهريًّا ، كذبيحة ، بشكل طعام ، وإن يكن بحسب قول دى لوغو ، غير مباد جوهريًّا ، إلا أنه مباد بمقدار ما ينحط إلى حالة يعجز معها عن استعمال خواص جسده البشرى الطبيعية استعمالا آخر بشكل طعام . وهذا التغيير يكفى لقيام ذبيحة حقيقية .

والمسيح فى هذه الحالة يعبد ، ويشكر الثالوث ، ويقدم ذاته لله من أجل مغفرة خطايانا . فكونه فى هذه الحالة هو أنه حقًّا فى حالة ضحية ، لا يمكنه ، معها ، أن يمشى أو أن يتحرك ويتكلم ، أو أن يبدى صراخاً طبيعيًّا ، ويكشف عن ناسوته المقدس بأى نوع من الأنواع .

فهو قائم ، بنوع ما ، فى حالة خضوع نستطيع بها أن نصنع به ما نريد . يمكننا أن نقدم له حبنا واحترامنا ، ونعبده مع ألوف القديسين والملائكة ، كما يمكننا أن نعامله ببرودة وعدم اكتراث ، أو نسخر منه ، ونجدف عليه كالخطأة والشياطين.

٣ — لا تظنوا أن ربنا فى القربانة بلا عمل ولا حياة . لا ، بل هو ضحية حية .

وقد كتب الأب دابجرن فى كتابه عن التناول : « لنكن على يقين أن يسوع هو حى فى سر القربان .

« وإذا اعتبرنا درجات مملكة هذه الحياة العجيبة كلها ، من أصغر جسم خفى فى قاع البحار إلى حياة مريم المجيدة ، إلى الله الحى أبدياً ، لا نجد حياة أقوى من الحياة الموجودة فى دائرة القربانة الضيقة .

« فهناك ، أولا ، حياة الله الآب والابن والروح القدس ، الحياة الأبدية الثابتة ، مع جميع أعمال عقله وحبه الواجبة الوجود ، وأفعاله الحرة نحو الخلائق . وهناك حياة يسوع الكلمة الأزلى المتحد بالطبيعة البشرية التى اتخذها ، والرؤيا السعيدة . وحول الرؤيا السعيدة حياة يسوع الدائمة التغير ، حيث تتوالى فى نفسه صنوف الحب ، والعواطف والأفكار ، تبعاً لحالنا وطبقاً لما يجرى فى قلب من يحضرون الذبيحة المقدسة .

« فكل نفحة من صلاتنا ، وكل نسمة من صدرنا ، وكل زفرة من نزعنا ، تثير ما عند يسوع من عميم الحب فى القربان المقدس . يالحياة

يسوع المدهشة ! فهما تكاثف ما يحجبه من الحجب عن عيوننا ، فهو متنبه واع لكل ما يجرى حوله ، حتى ليفطن لأقل رغبة من رغبات من يزوره ، ويستمع مبتهج القلب إلى كل ما نهمس به من همسات الحب . هو متناهي الاختفاء، وكأن الأعراض الواهية جدار من الماس يعزله عن كل خليقة ، ولكنه على متناول الصلوات ، تمسه أوهى همسة من وراء حجابه» .

٤ — إن الكتب الروحية تقارب دائماً ما بين التجسد وبين حالة الذبيحة فى القداس .

فالكلمة الذى كان فى جلال اللاهوت ومجده قد تخلّى بالتجسد عن ذاته ، باتخاذه حالة العبد الوضيعة ، وبمصيره شبيهاً بالبشر ، وظهوره بمظهر إنسان ؛ غير أنه — فى هذه الحال — لم يتخلّ عن قدرته الإلهية ، ولا ناله أقل إصغار أو انتقاص فى مجده السماوى ، وإن يكن قد تواضع حتى موت الصليب .

.. وهو على هذا المثال يومياً فى كل قداس باق فى طبيعتيه : إلهاً كاملا وإنساناً كاملا، وحياً أبداً ، فى سعادة السماء غير المتناهية ، بلا نقصان ولا إقلال فى مجده، وسعادته وفى طبيعتيه الإلهية والإنسانية ، تخلى من ذاته تحت ظاهر الخبز والخمر ، وتواضع ليخضع لموت سرّى على المذبح ، كضحية خلاصية .

هذه الأعجوبة أغرب ما فى الدنيا . ولا يمكننا أن نؤمن بها ما لم نؤمن بالتجسد ، فإنها بنوع ما تابعة ومكملة له بشكل آخر .

الفصل الخامس

ذبيحة القداس هى ذبيحة الصليب عينها

١ — سمعتم كثيراً أن مدرسة القديسين الكبرى هى التأمل فى آلام ربنا يسوع المسيح . وقد كانت موضوع تأمل العذراء القديسة الدائم . ولا أحد يقدر أن يدّعى أنه بلغ درجة من القداسة أو اتحاداً بالله ، إن لم تتخذّ نفسه بالتأمل الدائم فى آلام المسيح وموته .

قد يظهر أولا أن فى هذا التوكيد مبالغة . على حين أنه الحقيقة بعينها، الحقيقة العميقة التى تظهر لكم يقينيتها حينما تسلّمون بأن القداس قد وضع لأجلنا ، تذكاراً دائماً وتمثيلا لآلام يسوع المسيح وموته .

فكيف لا نتخذ من آلام ربنا موضوعاً أساسيًّا لأفكارنا ؟ فإنها لا تغيب عن روح الكنيسة يوماً واحداً ولا ساعة واحدة ، لأن ذبيحة القداس لا ينقطع تقديمها كل صباح أبداً فى كل مكان على الأرض كلها ، بل أمست تقدم فى الأمسيات . فما أحق أن تظل الآلام ، والقداس مطبوعة فى صميم روحنا وقلبنا !

٢ — رأينا فى الفصل السابق كيف يصبح ربنا ضحية فى القداس ، فبقى علينا أن نرى كيف لا يكون القداس ذبيحة تذكارية فقط لذبيحة

الصليب بل هو ذبيحة الصليب مجددة .

فيلزم ، فيما يخص علاقة زمن تقديمها ، أن نلاحظ أن ربنا قد قارب — ما أمكن — بين زمن رسم الذبيحة وزمن الآلام والموت . فكان ظرفا المكان والزمان معدّين لوحدة الفعلين .

فبعد أن أكل ربنا الحمل الفصحيّ الذى كان أكمل صورة له فى العهد القديم ، أبطل إلى الأبد طقوس ذبائح الشريعة القديمة ، وأنشأ محلها ذبيحة الشريعة الجديدة ، وهى ما نسميه القداس .

أصغوا إلى قوله للرسل : « شهوة اشتهيت أن أحتفل معكم بهذا الفصح . اشتهيت أن أضع حدًّا للاحتفالات الرمزية وأن أنشىء محلها ذبيحة الحمل الحقيقى غير الرمزية التى تمحو خطايا العالم . فبعد قليل ، أسفك سيلا من الدماء وأموت عنكم على الصليب . ولكن قبل أن أسكب دموعاً دامية على جبل الزيتون وأدخل فى نزع الموت ، أجعل من هذا عهداً سامياً ، وما أسلمكم إياه ليس سواى أنا نفسى . أنا الخبز النازل من السماء ، فمن يأكلنى يحى بى . ها هى ذى ذبيحة الشريعة الجديدة غير الدموية إلى منتهى الدهر ، غفراناً للخطايا وتذكاراً لما سأتحمله من الآلام والموت » .

وبعد أن رسم ربنا ذبيحة القربان المعبودة ، وهو نفسه الكاهن والضحية ، سار لساعته ، حتى يقدم الذبيحة نفسها ، ولكنها هذه المرة ذبيحة دموية على الجلجلة .

٣ – يقول لنا الآباء إن المشابهة الخاصة بين ذبيحة القداس وذبيحة الصليب قائمة فى كلا التقديسين اللذين يمثلان بنوع سرى انفصال الجسد عن الدم ، أو بعبارة أخرى ، موت المسيح الحقيقى ، بحيث تشبه كلمة الكاهن سيفاً ، حسب تعبير القديس غريغوريوس النزينزى . فربنا هو حقاً تحت كل من الشكلين ذبيحة كاملة ، ولكن التقديسين جوهريان لذبيحة القداس : وهكذا شاء المسيح أن يجدد سرياً موته ويذكرنا به .

٤ – وقد حدد المجمع التريدنتى أن ذبيحة القداس هى ذبيحة الجلجلة نفسها ، هى نفسها ، لأن هناك وحدة عددية ذاتية فى الكاهن الأصلى مقدم الذبيحتين ووحدة عددية ذاتية فى الضحية الإلهية المقدمة المباركة إلى الأبد . وهكذا ، فى كل ما هو جوهرى للذبيحة ، فالذبيحتان من حيث الكاهن ومن حيث الذبيحة : الذبيحة نفسها والكاهن نفسه .

إنما هما تفترقان ببعض عوارض : أولا ، بشكل تقدمتهما . فإحداهما تمت بالألم وسفك الدم المادى ، والأخرى تتم بدون ألم وبدون سفك دماء .

ثانياً ، إن إحداهما لم تقدم إلا مرة واحدة ، والأخرى تعاد تقدمتها كثيراً .

ثالثاً ، كان على الصليب الكاهن الأصلى والذبيحة تحت أنظار الناس ؛ أما فى القداس ، فهما غير منظورين .

رابعاً ، وهنا اختلاف ووحدة معاً فى غاية هاتين الذبيحتين وأثرهما . ففى ذبيحة الصليب اكتسب الكاهن استحقاقات لا حدّ لها ، وقدم لله

ترضية وتعويضاً يكفيان للتعويض عن خطايا ألوف العوالم . وفى ذبيحة القداس ، لا يكتسب الكاهن نفسه استحقاقات جديدة ، ولا يقدم ترضية جديدة ، ولكنه يوزع على النفوس ، بمقدار ما يلائمها ، وما تستطيعه من الاستحقاق والترضيات التى اكتسبها بموته على الصليب وجعلها كنزاً لا يفنى ولا ينفد على الدهر .

وعلى هذا تكون الذبيحتان ذبيحة واحدة مع فوارق من بعض الوجوه .

فالقداس ، فيما يخص مفاعيل الذبيحة فى النفس يمتاز عن الجلجلة ، لأنه أفيد لنا أن نحضر ذبيحة القداس الإلهية يومياً ، مما لو كنا حضرناها مرة واحدة على الجلجلة .

وإليك السبب : إن يسوع المسيح فى القداس يوزع على النفس ويمنحها ، طبق استعدادها ، ما اكتسبه ولم يوزعه على الصليب. فعلى الصليب افتدانا ، وعلى الهيكل يتمم عمل فدائنا .

الفصل السادس

القداس هو مركز العبادة

١ — أما نشعر أحياناً بالملل من الناس ، وبخاصة من نفوسنا ؟ أو تستولى علينا الهموم، وترهقنا المحن ، حين نفقد مالنا ، أو نحرم قوانا ؛ فنتألم وحدنا ، بلا أخ ولا صديق يعزينا . أما تمنينا يوماً أن نكون مع الله سعداء ، مستريحين ، مسندين رأسنا على قلب المسيح ؟ لو كنا نستطيع أن نمضى رأساً إليه ونشكو له همنا ، فيمدّ إلينا يده وينتشلنا من وهدة بؤسنا ، ويقول لنا : امض بسلام !

فلماذا الشكوى ، ونحن فى القداس نملكه ، لا رمزياً كما كان قديماً محتجباً خلف أستار الهيكل، بل جوهرياً وشخصياً ، بكل قدرته الحية وحبه الرحيم، محجوباً بالأعراض السرّية الشفافة . هذا الحجاب إن يكن عند الحس البشرى وعند العلوم البشرية سميكاً كجدار من ماس لا يخرق ، فإنه عند ربنا أرق وأدق من خيوط العنكبوت ، وهو يقرب المسيح منا اقتراب الشكلين عينهما .

وما هذا بقصة ، أو صورة ، أو خبر عن حياته المعروضة أمامنا فى الذبيحة . فالإله المتجسد نفسه حاضر هناك حقاً ، فى كل ما رافق

حياته ، منذ تجسده حتى اللحظة الحاضرة ، فهو الكاهن الإلهى فى حشا البتول ، وهو الطفل الباكى فى المهد ، والمعلم يشرح لتلاميذه كيف يصلون ، والراعى الرحيم يشفق على الجموع التى لا راعى لها ، وهو الطبيب شافى نفس المرأة المسكينة وقد أخذت بخطيئة ، وهو المعزى لكل بائس ويائس . هو هنا ، هو هنا .

هو الراعى الصالح الذى حمل على كتفيه بؤسنا ، وآلامنا ، وآثامنا الشنيعة . هو الكاهن الذى تقدم ضحية عن خطايانا ، وسمّر على الصليب ، مع جسده ، حكم هلاكنا ، هذا الجسد الذى دفن وقام من بين الأموات وصعد إلى السماء ، وما ينعم به من الحياة المجيدة الآن فى السماوات ، كل هذا حاضر من أجلنا . فماذا يمكنا أن نتمنى فوق هذا ، إلا أن نشاهده فى مجده الأبدى ؟

٢ — افتحوا عيون الإيمان وتأملوا فى المذبح . فإن مذابح الدنيا كلها ما هى إلا مذبح واحد ؛ وجميع الذبائح ما هى إلا ذبيحة واحدة ؛ والكاهن الواحد الأكبر هو يسوع المسيح ، الكاهن نفسه ، وضحية الجلجلة وذبيحتها نفسها حاضرة دائماً على المذبح ، فى هذا الهيكل العظيم كالعالم الذى يدعى الكنيسة .

تأملوا فى هذا المشهد العجيب ، تروا فوق الهيكل السماوات مفتوحة ، وجلال الله الرهيب ، والنور الباهر ، وندى السماء ، وسيول النعم الغزيرة لا تبرح تغمر الدنيا بفيضانها ؛ فمريم ، ويوسف ، والرسل ، والقديسون ،

وجموع كثيرة من أرواح الطوباويين تعبد المسيح ، وتمدحه ، وتباركه ، وتشكره بأناشيد متناهية جودة وعذوبة من أجل ما منحهم من المواهب ، ومن أجل سر الجلجلة العجيب المتجدد على الدوام . فالخلق برمته مدين لربنا يسوع المسيح ؛ وما من ملاك إلا قبل من ملئه السعادة والنعمة ، كما يقول القديس توما : « إن ملء النعمة بالمسيح هو علة ما تملكه كل خليقة عاقلة من النعم » (يوحنا ١ : ١٦) .

وأمام الهيكل تحتشد جموع المؤمنين ، أشبه بذاك « العدد الكبير من المرضى ، والعميان ، والعرج والمخلّعين الذين كانوا ينتظرون تحرك الماء » (يوحنا ٥) ، ولكنهم هنا ينتظرون من هو أعظم من ملاك . نرى بينهم مريمات مجدليات فى خطاياهن المخجلة ، ومثل سمعان بطرس فى نكرانهم العنيد ، وكثيرين كنيقوديموس فى مخاوفهم وجبنهم ؛ وها هوذا اللص يتوب عند تقدمة الذبيحة ، ولونجين مع حربته ، عند ما طعن بها قلب المسيح ، وخلائق لا تحصى ، لا تبرح تئن وتتألم آلام المخاض .

أيها الطفل المسكين ، تعال ههنا مع قلبك المعذب ، تعال إلى الذبيحة فيكون لك خير عظيم . لقد هدّت قواك المحن ، والخسائر ، والآلام ، والفقر ، والعار والوحدة . فعجّل وامض إلى القداس ، هناك تجد مَن حسب كدودة أرض ، لا كبشر ؛ يعرف العذاب ما هو ؛ لقد أضنكه ما حلّ به من المحن . فلن تكون بعدئذ وحدك ، دون صديق ، لقد وجدته ، فيخاطب قلبك ويكون قوتك وعزاءك .

انظر ما أكثر رحمته ! إنه لا يظهر لك ببهاء مجده السماوى ، بل بظواهر بسيطة ، كضحية وذبيحة ، على مذبح وضيع يقدر البشر المساكين المعذبون والخطأة البائسون أن يقتربوا منه ، متكلين عليه ويقولوا : « إن حبرنا ليس ممن لايستطيع أن يرثى لضعفنا، بل قد جُرّب فى كل شىء مثلنا ، ما خلا الخطيئة » (عبر ٤٠) . ما أسعدك لو قدرت أن تلقى حملك ، كل يوم عند قدميه .

إننا نرى حولنا ، وإلى أبعد ما يستطيع بصرنا ، عدداً من الشعوب الجاهلة ، الكافرة ، الغارقة فى الشر ، ولكن هذه الشعوب نفسها تشترك ، ولو بطريقة غير مباشرة ، بثمار الذبيحة ، ولا أحد منها مختف عن أنظار ربنا ، وجميعها مدعوة لأن تصبح أعضاء فى الكنيسة ، وتشترك فى الذبيحة ، وتناول الخلاص . فالقداس يقدم من أجل خلاصنا وخلاص العالم كله .

الفصل السابع

الكمالات الإلهية ظاهرة فى القداس

١ ـ الكاثوليكى الحقيقى يتأمل فى القداس بأعظم مظاهرة وأعذبها للكمالات الإلهية .

فهو يستشف ، من وراء حجب الإيمان ، شعاعاً من حكمة الله غير المتناهية ، يرى كيف منح الله البشر بالقداس وسيلة لكى يقدموا ، بواسطة رأسهم وكاهنهم يسوع المسيح ، للثالوث الأقدس المعبود ، سجوداً ، وشكراً ومجداً لا حدود لها ، لا مرة واحدة ، بل مراراً وإلى منتهى الدهور . فما أغرب ما أعطى الله الإنسان من هذه الأفعال السامية التكريم ، إذ وكل أمر الاحتفال بها مراراً إلى إرادة الإنسان !

ولكى يحثنا بدافع المنفعة الشخصية ، على تقديم القداس أكثر ما يمكن ، فقد حدد بحكمته غير المتناهية ما تجنيه نفوسنا من الثمار ، وقت القداس . فنحن نعلم بنوع أكيد أن هذه الثمار مخصصة لنفسنا ، فى كل قداس ، ما لم نضع بيننا وبينها مانعاً ؛ غير أن مقدار هذه النعمة يبقى خفيًّا عنا .

فحكمة الله عند هذا التأكد من العطية ، والشك من مقدارها ، تدعونا ، برفق وبوجه فعّال ، إلى الإكثار من القداديس ، من أجل

احتياجاتنا أو من أجل النفوس التى فى المطهر . فنكثر فى الوقت نفسه أفعال العبادة والمديح والشكر بما نقدمه للعزة الإلهية .

٢ — فالقوة الإلهية تثبت فى القداس بأعجوبة تحول الخبز والخمر إلى جسد يسوع المسيح ودمه ، هى أعجوبة تتضمن — كما يقول لسيوس فى (الكمالات الإلهية ، كتاب ١٢) — سبع معجزات مختلفة تتعلق بأعراض وجواهر عنصر الذبيحة المادى (الخبز والخمر) وكيفية وجود المسيح السرية . هذه المعجزة هى من الغرابة بحيث تتجاوز كل قوة وكل فهم بشرى ، نعم ، إنها تتجاوز كل قدرة مخلوقة ، عدا ناسوت المسيح القدوس الذى يمكنه وحده أن يقوم بها من حيث إنه آلة إلهية (آلة اللاهوت) . المسيح وحده يتممها ، بينما الكاهن يلفظ باسمه كلماته الإلهية الخاصة .

٣ — ثم تلمع فى القداس جودة الله غير المتناهية ، نحونا ، نحن الخطأة ، لمعاناً باهراً ، فتتأكد أولا بامتداد سر التجسد العجيب ، إذ يولد الكلمة المتجسد ، بنوع ما ، ميلاداً جديداً ، بين أيدينا ، وتتجدد ذبيحة الصليب السرية ، فتمنح الجودة الإلهية « من تعلم ما عندهم من الإيمان والعبادة » ، زيادة فى الإيمان ، والرجاء ، والمحبة ، وفضائل أخرى ، مع الإعفاء من عقوبة الخطيئة ، والقدرة على تقديم الإكرام والشكر غير المتناهيين لله تعالى .

٤ — وتظهر فى القداس قداسة الله غير المتناهية ، وتقوم القداسة

بالغيرة على مجد الله والبغض للخطيئة . فذبيحة الصليب كانت فعل غيرة غير متناهية على مجد الله ، وترضية ، وكفارة عن ذنوبنا لاحدّ لها .

والضحية المعبودة ، كلما تقدمت فى القداس ، شعرت بنفس ما شعرت به يوم تقدمت على الصليب ، من الغيرة على مجد الله والكره للخطيئة .

وقداسة الله خليقة أن تقبل من كنيسته إكراماً غير متناهى التقديس ؛ وهذا الإكرام الغير المتناهى التقديس تقدّمه الكنيسة لله ، كلما تقدم فيها قداس .

٥ — وعدل الله غير المتناهى ، ورحمته غير المتناهية حاضران هما أيضاً وقت تقدمة القداس . فلما أخطأ الإنسان ، طالبه عدل الله غير المتناهى بترضية وتكفير غير متناهيين يعجز عن تقديمهما . فتدخلت رحمة الله غير المتناهية وتحملت دَين الإنسان . لهذا لم يشفق الله على ابنه نفسه ، بل أسلمه من أجلنا . وحين كنا لا نزال خطأة ، مات المسيح من أجلنا حتى يكفر عن خطايا الشعب (روما ٨ ، عبر ٢) ؛ فالقداس هو مقاضاة العدل الإلهى الدائمة من جهة ، والرحمة الإلهية من جهة أخرى .

جميع هذه الكمالات غير المتناهية تظهر فى كل ما يقدم من القداسات .

الفصل الثامن

ما يظهر فى القداس من فضائل ناسوت المسيح المقدس

يسوع المسيح هو مثالنا الأكمل . وهأنذا أذكر بعضاً من الفضائل التى يقدم لنا منها مثالاً فى القداس تصلح موضوعات للتأمل والصلاة :

١ — يسوع المسيح يعطينا هنا دليلا على أشد الحب لله ، الحب الحر المستقل عن كل إكراه ، فابن الله يغدو بطبيعته البشرية ضحية ويتقدم يوميًّا فى القداس محرقة ، معترفاً بقدرة الله السامية وبذلة الإنسان . فهذا التكريم دليل دائم على حب المسيح لأبيه .

وكلما قدّمت الذبيحة المقدسة، قدّم يسوع المسيح لله مجداً وإكراماً بما لا يحد من كل ما يستطيع الملائكة والبشر معاً أن يقدموه .

٢ — وحبه غير المتناهى للبشر يظهر فى الذبيحة المقدسة . فهو رغم ما قاساه مدة حياته على الأرض ، وما لقيه من نكران الجميل فيما بعد ، لم يزل يتقدم ذبيحة ، ويرغب رغبة صادقة وفعالة أن يقدم لنا الوسيلة لكى نتمم كل يوم واجباتنا الأربعة المفروضة علينا . « أحب خاصّته ، أحبهم إلى الغاية » . ويقول القديس الذهبى الفم : « إن الرعاة لا يغذون نعاجهم بدمهم ، والأمهات كثيراً ما يسلمن أطفالهن إلى المرضعات الغريبة ،

أما فادينا ، فيبلغ به حبه لنا إلى أن يغذينا يومياً بجسده ودمه ، ويضمنا إليه بأوثق رُبط الحب .

٣ ـ تأملوا تواضعه . هل كان ممكناً أن يأتى إلينا بحال أوضع من كسرة خبز صغيرة ؟ هو الساكن فى مجد أبيه ، ينحط إلى حال أدنى من حال الضحية على الهيكل ، ثم يعترف بأن عطايا طبيعته البشرية جميعها ومجدها إنما هى آتية من الله وأنه هو خاضع له وحده . فتعلم أيها الرماد والتراب ، أيها الإنسان الخاطئ ، تعلم التواضع فى ذبيحة القداس .

٤ ـ والوداعة ، واللطف ، والصبر ، والطاعة وجميع ما ينقصك من الفضائل الأخرى ، فكلها مهيأة لك ، إن شئت أن تراها فى نفس يسوع القدوسة ، حين تكون الضحية الوديعة ، اللطيفة ، الخاضعة على الهيكل المقدس .

ما أقوى الأسباب التى يجب أن تدفعنا إلى استماع القداس بعواطف الإيمان والحب ، لا يوم الأحد فحسب ، بل كل يوم ، إن أمكن ، من أيام حياتنا .

الفصل التاسع

الملائكة يحضرون القداس

١ ــ هو اعتقاد أكيد في الكنيسة أن الملائكة يحضرون الذبيحة المقدسة ، في كل قداس ، ولا غرابة في ذلك . إذ لا شيء ، يتم في السماء أعظم ولا أقدس من القداس ، فتقدمة يسوع على مذابح أرضنا ترتعش لها كل أجواق السماء ، وبينما هي تمنحنا النعمة والمغفرة ، تقوم بعمل لا حدّ له من العبادة والشكر يتردد صداه كأطيب الألحان ، في أرجاء الخلق كله . فاسمعوا كيف يعبر القديس يوحنا الذهبي الفم عن اعتقاد الكنيسة الشرقية في حضور الملائكة :

« وقت تقدمة الذبيحة ، تقف الملائكة ، حوالى الكاهن ، وجميع طبقات السماويين تصلى بحرارة ، والهيكل يمتلئ من أجواق الملائكة ، يأتون لكي يكرموا من يتقدم للتضحية . ويمكننا بلا صعوبة أن نؤمن بجميع هذا ، لما هو معروف عن طبيعة هذه الذبيحة . وقد سمعت من يروى هذا الحدث الآتى ، وكان قد أخذه عن شيخ جليل كثيرًا ما أوحى الله إليه بأسراره . فقد رأى يوماً رؤيا واضحة كل الوضوح لما كان يحدث وقت القداس ، رأى حشداً من الملائكة يحلون فجأة في المعبد ؛

بهينة بشرية ، وعليهم ملابس برّاقة ، وكانوا يحيطون بالمذبح ، ثم حنوا رؤوسهم إجلالا كما ينحنى حرس البلاط أمام الملك . أنا لا أستصعب مطلقاً تصديق هذا الخبر » (كتاب الكهنوت ٦) .

وبينما كان يخاطب ، مرة أخرى ، شعب أنطاكية قال : « يمكنكم أن تصلوا فى بيوتكم ، نعم ، ولكنكم تصلون صلاة أفضل فى الكنيسة . وإن صليتم وحدكم ، تكون صلاتكم أقل قبولا مما لو صليتم مع إخوتكم . فليس البشر وحدهم يعبدون ويصلون فى هذا المكان الرهيب ، بل الملائكة أيضاً يسجدون ويصلون وقت الاحتفال بالذبيحة الإلهية ، لأنهم يعرضون على الله جسد الرب ، ويطلبون منه ، ملحّين وقائلين : إنا نسأل رحمتك من أجل من سبقت فأجببتهم ، نتوسل إليك من أجل من أحببتهم حتى ضحيت فى سبيلهم بهذا الجسد » .

وإحدى الليتورجيات القديمة المارونية تتضمن هذه الكلمات الصريحة :

« قوات السما أحاطت معنا بمائدة المذبح
تقدم أسرار الحمل الذى قدامنا يذبح »

وتقول فى موضع آخر : « أجواق الملائكة تمشى أمام ملك الملوك عند ما يتقدم لكى يضحى ويعطى غذاء للمؤمنين » .

وجاء فى القداس القبطى الإسكندرى قبيل كلام التكريس :

« الذى يقف أمامه الملائكة ورؤساء الملائكة والرئاسات والسلطات والكراسى والربوبيات والقوات .

الذى يقوم حولك الشاروبيم الممتلئون أعيناً .

والساروفيم ذوو الستة الأجنحة يسبحون على الدوام بغير سكوت قائلين :

وهنا يجاوب الشعب على الكاهن :

تعالوا إلى المائدة نبارك الله مع الملائكة ورؤساء الملائكة صارخين وقائلين : قدوس قدوس قدوس أنت أيها الرب ، هللويا . مع الشاروبيم نرسل التسبيح قائلين قدوس قدوس قدوس أنت أيها الرب . هللويا . تفرح السماء وتتهلل الأرض والشاروبيم يبسطون أجنحتهم ويصرخون ثلاث مرات كمثال الثالوث : قدوس قدوس قدوس أنت يا رب . هللويا . (من القداس الباسيلى للطقس القبطى) .

٢ — وهذا الاعتقاد يثبته فى الغرب كثيرون من المعلمين وآباء الكنيسة فالبابا غريغوريوس الكبير ، من الجيل السادس يقول : « أىّ مسيحى صادق الإيمان يمكنه أن يشك فى أن السماء تنفتح ساعة الذبيحة ، عند كلمات التقديس ، وأن الملائكة تحضر سر يسوع المسيح ؟ إن أعظم ما فى الوجود يتحد بأدنى ما فيه ، فالسماء تقترن بالأرض ، ويصبح المنظور وغير المنظور واحداً » (حوار ٤ ، ٥٨) .

ويضاف إلى كلام القديس غريغوريوس قول القديس أمبرسيوس ، عند كلامه عن الملاك الذى كان واقفاً بجانب زكريا عند ما كان يقدم البخور ، قال : « إن كان ملاك يقدر أن يعيننا عند ما نبخر الهيكل

ونقدم الذبيحة ، وإن كان يقدر أن يظهر لعيوننا ، فلا يمكنكم أن ترتابوا فى أن ملاكاً يحضر الذبيحة حينما يكون المسيح حاضراً وحينما يكون المسيح ذبيحاً » .

هذا الاعتقاد كان مألوفاً عند مسيحيي إنجلترة من أول عهودهم . وإليكم كلمات المكرم «بيدا» الذى يعتبر ممثل الكنيسة الإنجلوسكسونية : « لا يحدثن أى شىء خفيف ، وغير لائق ، أو ما من شأنه أن يلهى قريبنا فى بيت الصلاة ، حيث يتقدس جسد الرب ، وحيث يكون الملائكة دائماً حاضرين . فإن عدداً كبيراً من هذه الأرواح الطوباوية ممن سهروا بكل عناية على جسد المسيح المقدس ، عند ما كان فى القبر ، يحضرون حينما يحتفل بسرّ جسده ودمه ؛ هذا أمر لا ريب فيه . ولذلك ، يجب علينا ، يا إخوتى ، كلما دخلنا الكنيسة لكى نحضر الذبيحة المقدسة ، أن نبذل جهدنا لنتذكر حضور الملائكة ونقدم لهم ما يحق لهم من واجب الخشية والاحترام ، على مثال القديسات عند القبر . « فإنهن كن خائفات وقد نكّسن رؤوسهن فى الأرض » (لوقا ٢٤ : ٥) .

ويقول التقى والعلامة الإنجليزى «ألكوين» تلميذ «بيدا» ، فى اعترافه بالإيمان ، عن حضور الملائكة وقت القداس : « إن القداس ، فعل العبادة هذا ، يقدمه الكهنة وأسرة بيت الله جميعاً لله وحده . فالملائكة القديسون والأرواح الطوباوية يؤلفون معنا مدينة الله ، فقسم من هذه المدينة على الأرض ، والآخر فى السماء . ولا شك أن سكان السماء يحضرون

الاحتفال بالقداس لكى يقدموا للجلال الإلهى الأسرار المقدسة على مذبح أعلى ، مذبح صلواتهم وخدماتهم الملائكية . وعلى هذا ، يجب أن نعتقد أن المسيح حاضر وقت الذبيحة لكى يقدس عناصرها التى على المذبح ، وهو محوط بالأرواح السماوية التى تخدمه » (مؤلفات ألكوين . مجموعة مين ص ١٠٨٧) .

والقديس أنسلموس أسقف كانتوربرى يثبت فيما كتبه من الصلوات للعاديين من المؤمنين وجود هذا الاعتقاد فى كنيسة نورمندية فيقول : « لا ترتابوا فى أن الملائكة وقت تقدمة جسد فاديكم ودمه هم ساجدون قدام خالقهم ، يقدمون لجسده ودمه أعمق الإكرام والإجلال » . وهناك صلاة ألفها القديس أنسلموس ليتلوها الكهنة قبل القداس :

« أى توجع فى القلب ، وأى سيل من الدموع ، وأى احترام ، وأية خشية ، وأية عفة فى الجسد وطهارة فى الروح ، لا ينبغى أن تكون عندى ، يارب ، للاحتفال بهذه الذبيحة الإلهية السماوية ، حيث جسدك مأكل حقيقى ودمك مشرب حقيقى ، وحيث يتحد ما هو أدنى بما هو أسمى ، وحيث يتجمع الملائكة القديسون ، وتكون أنت ، بنوع عجيب فائق الوصف ، كاهناً وضحية معاً » .

ويمكن القول إن هذا التعليم قد أوجزه بنديكتس الرابع عشر فى كتابه عن القداس ، فقال : « إن الكنيستين اليونانية واللاتينية قد اعتقدتا دائماً بأن الملائكة ، بعد التقديس ، ينحدرون من السماء ويحيطون بالهيكل ،

ساجدين ليسوع المسيح الحاضر حينئذ حقًّا » (كتاب ١١ فصل ١٥ ص ٢٦) .

٣ – لم يبق لى إلا كلمة أقولها ، زيادة لعبادتكم ، قبل ختام هذا الفصل ، عن ذخائر الشهداء القديسين التى تقدم فوقها الذبيحة الإلهية . يقول القديس يوحنا : « رأيت تحت المذبح نفوس من قتلوا ، لأجل كلمة الله ، ولأجل الشهادة التى شهدوا بها » (رؤيا ، ٦ : ٩) . هل مرجع هذه الرؤيا إلى عادة كانت مألوفة أيام القديس يوحنا ، أو هى نفسها أوعزت بالاحتفال فى القداس على ذخائر الشهداء ؟ هذا مما يصعب الجواب عنه . غير أن الأكيد هو أن الذبيحة المقدسة كانت منذ أوائل المسيحية تقدم على ذخائر الشهداء القديسين .

يقول لينجارد : « إن وجود الذخائر كان يعتبر بالعموم ضروريًّا لتدشين كنيسة أو مذبح تدشيناً قانونيًّا . لذلك اهتم القديس غريغوريوس الكبير ، لما عرف بنجاح المرسلين فى إنجلترا ، فأرسل إليهم ذخائر جديدة (آثار الكنيسة الإنجلوسكسونية) .

فجميع المذابح التى تقدم عليها اليوم الذبيحة الإلهية تحتوى على عظام الذين سفكوا دماءهم من أجل الإيمان ، ومن أجل المسيح . وعند ما نكرم ذخائرهم ، وقت تقدمة الأسرار المقدسة ، تستغرق نفوسهم فى سجود عميق وشكر صميم .

٤ – فكيف يمكننا أن نبقى باردين وغير مكترثين ، ونحن مع

الملائكة والقديسين ؟ كيف نبقى ساهين لاهين ، وقت القداس ، بينما الملائكة والطوباويون لا يغفلون لحظة عنه ؟ بل أخص من ذلك ، كيف نبتعد تماماً عن القداس ، مفضلين النوم ، والراحة ، واللهو السخيف ، وبعض المشاغل الزهيدة ، أو الأحاديث الباطلة ، على حين أنكم إذا ذهبتم إلى القداس ، كما يقول الرسول : « دنوتم إلى جبل صهيون ومدينة الله الحى أورشليم السماوية ، وإلى محفل ربوات من الملائكة ، وإلى كنيسة الأبكار المكتوبين فى السماوات ، وإلى الله ديان الجميع وإلى أرواح الصديقين المكملين، وإلى يسوع وسيط العهد الجديد، وإلى دم رشيش ينطق بأبلغ من دم هابيل ، فاحذروا أن تستعفوا من الذى يكلمكم ، فإنه إن كان الذين استعفوا من المتكلم على الأرض ، لم يفلتوا ، فبالأحرى كثيراً نحن إذا أعرضنا عن المتكلم من السماء الذى زعزع صوته الأرض ، حينئذ والآن وغداً قائلا : إنى ، مرة بعد ، أزلزل لا الأرض فقط بل السماء أيضاً . فقوله مرة بعد، يدل على تحويل ما يتزعزع من حيث هو متمم حتى يبقى ما لا يتزعزع . فلذلك ، إذ قد حصلنا على ملكوت لا يتزعزع فلنتمسك بنعمة نعبد بها عبادة مرضية بتقوى وورع » (عبر ، ١٢ : ٢٢ — ٢٨) .

الفصل العاشر

غايات القداس الأربع

١ — على كل خليقة عاقلة واجبان تلتزم أن تقوم بهما نحو خالقها : أن تعترف ، أولا وجهاراً ، بأنه رب الحياة المطلق ، وأن تعترف ، ثانياً وجهاراً ، بعلاقتها الخاصة بخالقها الذى هو مبدؤها الأول وغايتها الأخيرة علاقة مطلقة تشمل الحياة كلها وكل ما فيها ، مدى العمر ومدى الأبدية.

وينشأ عن ذلك ثلاثة واجبات :

١ — وجوب السجود لله وتقديم العبادة له ؛

٢ — وجوب الشكر على إحساناته ؛

٣ — وجوب الصلاة للحصول على نعم أخرى ، فى الحاضر وفى المستقبل ، لأن الخالق حر فى أن يمنح أو يمنع .

وإذا تمردت الخليقة على ربها وخالقها ، ترتب عليها ، لذلك ، واجب رابع هو واجب التعويض والتكفير للعدل الغير المتناهى الذى أهين ، وهذا ما يدعى الاستغفار .

فهذه الواجبات الأربعة نحو الله تقابلها غايات الذبيحة الأربعة .

٢ ــ وقد عرف الناس ، منذ القدم ، هذه الواجبات وتمموها بتقديم الذبائح ، كما عيّن الله فى الشريعة الموسوية ، بعض الحيوانات الصالحة للتضحية، وهى ما كان الإنسان قد أنّسه منها وطبع عليه شيئاً من مثاله ، بما كان يواصله به من العناية ، ويستعين به على غذائه، حتى الأشياء الجامدة نفسها مما كان يستخدمه منها فى طعامه ، كان يقدمه ذبيحة عنه، ويعترف بسلطان الله السامى عليه وبخضوعه المطلق له .

كان نوع التقادم يختلف باختلاف كل واجب من الواجبات الأربعة المفروضة ، غير أنها جميعها لم تكن عند الخالق سوى رموز للذبيحة الكبرى الآتية ، يدعوها القديس بولس « أركاناً ضعيفة فقيرة » (غلا ، ٤ : ٩) .

فكان لا بد من ذبيحة لائقة بالله .

ولكن ، لم يكن لا البشر ولا الملائكة ، على ما هم عليه من النقاوة ، أهلاً لأن يقدموا لله ما هو حقيق به من العبادة والمديح ، والشكر ، وصار الإنسان بعد أن أخطأ أعجز من أن يطلب من الله أن يستجيب دعاءه ، وأبعد من أن يقوم بالتكفير الكافى عن معصيته .

وإذ صار واجباً أن تقدّم للعزة الإلهية عبادة وشكر كاملان ، وأن يتجاوز التكفير ما لحق بقداسة الله وبره من الإهانة ، وترتفع نحوه تعالى صلاة أهل للقبول ، حينئذ أرسل الله ابنه إلى العالم ، فاتخذ طبيعة بشرية كاملة ، ضمها إلى طبيعته وأقنومه الإلهيين ، وأخذ على نفسه

واجبات البشر والملائكة نحو خالقهم ، حتى يؤديها ، نيابة عنهم تأدية كاملة .

فصفوف الملائكة الذين يملئون السماوات هم مدينون له بما عندهم من مواهب النعمة والمجد . فبه غدوا جديرين أن يقدموا لله ، الآن وإلى الأبد ، واجب العبادة ، والمديح والشكر الكامل كما هو مذكور فى طقس القداس : « به (بالمسيح) تسبح لعزتك الملائكة ، وتسجد لها السيادات ، وترتعد منها السلاطين ، وتشترك فى تبجيلها السماوات وقوات السماوات ، السارافون الطوباويون » ...

ونحن أخيراً « به ومعه» نحن الخطأة ، مدة نصف ساعة القداس ، نستطيع أن نتمم واجباتنا الأربعة العظمى نحو الله تتميماً لائقاً .

فلنحاول الآن أن نفحص بالتفصيل هذه الواجبات الأربعة فى علاقتها بالقداس .

الفصل الحادى عشر

لماذا تلتزم كل خليقة عاقلة أن تذهب إلى القداس ؟

(١) القداس هو ذبيحة عبادة سامية

١ — عندكم أوجب الأسباب لحضور القداس .

فالقداس هو ذبيحة عبادة لا تقدّر قيمتها بثمن ، تقدّم أمامكم . وهى تستمدّ قيمتها من شخص مقدمها الكاهن الأكبر يسوع المسيح ومن الضحية . والله يقبل منه ، فى كل قداس ، بصفته رأس الجنس البشرى ، أسمى فعل عبادة له قيمة غير متناهية . أيكون أمرًا تافهاً الاشتراك بهذا الفعل ؟ أما إن الاشتراك فيه هو من أعظم النعم ، سواء أقدّمنا الذبيحة بنفسنا أم حضرنا تقدمتها .

يذكر عن خادمة لله تقية أنها شعرت يوماً بقلبها يتقطع حزناً لرؤيتها أنها عاجزة عن تكريم الله كما يليق بجلاله الإلهى ، وتمنت ، فى كآبتها لو تكون لها قلوب وألسنة بعدد أوراق الشجر وعدد قطرات المطر ، لكى تعبده وتمدحه بها . فسمعت صوتاً رقيقاً يعزيها قائلا : « لا تحزنى ، يا ابنتى العزيزة : احضرى القداس بإيمان حىّ وتقوى عظيمة . . . فى كل

قداس يقدّم إكراماً لى كل ما تتمنينه من العبادات ومن المدائح . وهذه العبادات والمدائح لا حدّ لقيمتها » .

إن فعل العبادة هذا الذى يقدمه ربّنا يعتبره بعض الكتاب الروحيين سند العالم الأكبر ، والسبب الأعظم الذى يدعو الله إلى أن يشفق علينا ويرحمنا . هكذا صبر الله على إسرائيل من أجل إبراهيم ، وإسحق ، ويعقوب وداود ، ولو وجد عشرة أبرار فى سدوم لنجت سدوم من الدمار من أجلهم .

٢ — لقد سهّل الله علينا واجب عبادته ، حين أصبح قريباً منا فى القداس . كان الناس فى القديم يجدون مصاعب كثيرة لكى يعبدوا ربّاً لا يستطيعون أن يروه ؛ فصار لذلك إنساناً حتى نستطيع أن نراه ونعبده كإنسان إله ، وقد كتب : « حينما أدخل البكر إلى المسكونة قال لتسجد له جميع ملائكة الله » (عبر ١ : ٦) ، والإنجيل يقول : كان الناس يجيئون أمام الرب ويعبدونه ، فيقبل عبادتهم كما قبل عبادة الملائكة.

وهو على مثال ذلك ، حاضر على الهيكل فى القربان المقدس ، إلهاً حقّاً وإنساناً حقّاً . « ليس من شعب آلهته قريبة منه كقرب إلهنا منا».

٣ — اسمعوا كيف يصف القديس يوحنا ما يقدم فى السماء من العبادة للذبيحة الإلهية : « رأيت فإذا حمل قائم ، كأنه مذبوح . . . ورأيت ، فإذا أنا أسمع أصوات ألوف وألوف من الملائكة يقولون بصوت عظيم : مستحق الحمل المذبوح أن يأخذ القدرة ، والغنى ، والحكمة ،

والقوة ، والكرامة ، والمجد ، والبركة .

وكل خليقة مما فى السماء ، وعلى الأرض ، وتحت الأرض ، ومما فى البحر وكل ما فيها سمعتها تقول : البركة ، والكرامة ، والمجد ، والعزة للجالس على العرش ، وللحمل إلى دهر الدهور ، فقالت الحيوانات الأربعة آمين ، فخرّ الأربعة والعشرون شيخاً وسجدوا للحى إلى دهر الدهور » (رؤيا ، ٥) .

٤ — كان القديس يوحنا الصليبي يميل ميلا خاصًّا إلى خاتمة القداس الخصوصية : خاتمة السجود ، وكان كلما ساغ له أن يتلو قداساً غير مقيد ، تلا قداس الثالوث الأقدس .

وكان القديسان أغناطيوس وفيليب دى نيرى يرغبان أن يبقيا وحدهما وقت القداس ، ليتمكنا من إرواء عطش تقواهما الحارة ، ويذرفا الدموع الغزيرة تعبداً ، أمام الله الحاضر أمامهما كضحية ، فى القداس .

الفصل الثانى عشر

لماذا يجب على كل خليقة عارفة للجميل أن تذهب إلى القداس ؟

(ب) القداس هو ذبيحة شكر

١ — يدعى القداس بكل صواب ذبيحة قربانية ، أى ذبيحة شكر . فكيف نقدر نحن أن نشكر الله على كل ما صنع إلينا ؟

تأملوا هذه الكلمات البديعة من سفر يشوع بن سيراخ (٤٣ : ٢٩ — ٣٦) : « إنا نكثر الكلام ولا نستقصى ، وغاية ما يقال إنه هو الكل — ماذا نستطيع من تمجيده وهو العظيم فوق جميع مصنوعاته ، مرهوب الرب ، وعظيم جداً وقدرته عجيبة . ارفعوا الرب فى تمجيده ما استطعتم ، فلا يزال أرفع . باركوا الرب وارفعوه ما قدرتم ، فإنه أعظم من كل مدح . بالغوا فى رفعه قدر طاقتكم ، لا تكلّوا ، فإنكم لن تدركوه . من رآه فيخبر ؟ ومن يكبره كما هو ؟ وهناك خفايا كثيرة أعظم من هذه فإن الذى رأيناه من أعماله هو القليل » .

ويقول القديس أغسطينوس ما يتفق فيه مع العقل : إن الشكر هو

جزء جوهرى علينا من عبادة الله .

٢ — علىّ الآن أن أوجه إليكم ، من قبل الله ، بعض اللوم .

إنكم ناكرون لجميله تعالى . تقبلون كل يوم عطاياه وتنعمون بإحساناته ، كأنها حق واجب لكم . وإن قلتم : نشكر الله ، فما أقل شعوركم بهذا الشكر . أليس هذا حقًّا ؟ قد كان واجباً عليكم أن تشكروا الله كل يوم ، طول النهار ، على حين أنكم لا تكلفون نفسكم تعب الذهاب إلى الكنيسة ، آخر يوم من السنة لتشكروه على ما نلتم من فضله ونعمه ، طول العام .

إن سلوكاً كهذا ليس مخالفاً للصواب فحسب ، بل هو حماقة جسيمة . فقد صدق القديسان يوحنا ذهبي الفم وبرنردس بقولهما : إن الله يمسك ما كان يريد أن يعطينا إياه من النعم والبركات ، لأننا نقصر فيما يجب علينا من شكره ، وهو يمسكها ، أولا ، قصاصاً ثم رحمة لئلا يعاقبنا على نكران جديد للجميل .

إن نكراننا للجميل هو جنون غريب ، وإن كثيراً من أمراضنا وخسائرنا ، وآلامنا إنما سببها عدم شكرنا للنعم ، ولو كنتم بخلاف ذلك لأصبحتم سعداء ولطفاء ، ولا سيما أنتم أصحاب الطباع الجافية السريعة الغضب .

٣ — يقول القديس بولس فى رسالته إلى أهل أفسس (٥ : ٢٠) : « يجب علينا أن نكون شاكرين كل حين على كل شىء لله الآب ، باسم ربنا يسوع المسيح » ، وفى رسالته إلى أهل فيلبى (٤ : ٦) :

« لتكن طلباتكم فى كل شيء معلومة لدى الله بالصلاة والتضرع مع الشكر » ، وفى رسالته إلى أهل كولسى (٤ : ٢) : « واظبوا على الصلاة واسهروا فيها بالشكر » .

وللقديس غريغوريوس النيصّى فى هذا المعنى كلام بديع ، فيقول : « أعتقد أننا لو كنا نقضى كل لحظة من حياتنا فى محادثة الله بلا تشتت فكر ، ولا نعمل شيئاً آخر إلا أن نشكره ، لبقينا حقًّا مقصرين كثيراً عن شكره تعالى المحسن إلينا ، وكأننا ما فكرنا فى شكره ألبتة . لأن الزمان يشمل ثلاثة أوقات : الماضى ، والحاضر ، والمستقبل. فإذا نظرتم إلى الحاضر، فإنكم الآن تحيون بالله ، . وإذا التفتم إلى المستقبل ، فهو فى كل شيء رجاؤكم الأوحد ، أما فى الماضى فإنكم لولاه لما ظهرتم فى هذا العالم . فكان ميلادكم نبركة عليكم ، وحياتكم وموتكم ، كما يقول الرسول ، هما أيضاً بركته ، ومهما كانت آمالكم المستقبلة فهى متعلقة ببركته ، وليست لكم سلطة إلا على الحاضر ، ولذلك فإذا كنتم طول حياتكم لا تنقطعون عن الشكر ، ولو مرة واحدة ، فإن شكركم لله لا يكاد يفى بشكر الزمن الحاضر ؛ ولا تستطيعون أن تجدوا وسيلة للوفاء عن الماضى والمستقبل» .

وإن وجدت ثم وسيلة تستطيعون بها أن تشكروا شكراً لائقاً فى كل شيء ، فهذه الوسيلة إنما هى القداس ، فيسوع المسيح فى القداس يقدم ، بصفته رأس الجنس البشرى كله ، شكراً متواصلا غير متناه لله الآب ، فيمكنكم أن تضموا صوتكم إلى صوته .

القداس ممتلئ بكلمات الشكر : فى المجد لله فى الأعالى ، وفى المقدمة ، وفى قانون القداس ، وفى كل صلاة تختم بقولنا : ولك نرفع المجد والشكر والسجود ، أيها الآب والابن والروح القدس الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين .

وقد رسم الرب القداس لكى يكون ذبيحة شكر دائمة من أجل خلقنا ، وحفظنا ، وفدائنا ، وتبريرنا ومن أجل جميع البركات الروحية والزمنية التى يحتملها تبريرنا .

٤ — كان القديس توما الأكوينى ، بعد تقدمته قداسه ، يخدم قداساً آخر حتى يقوم بأفعال الشكر . والبابا نفسه وألوف من الكهنة يحضرون بعد قداسهم قداساً ثانياً للشكر ، وكان من عادة الأب فابر أن يقدم قداسات ، ويطلب من كهنة آخرين أن يقدموا قداسات للتعويض عن التقصير فى الشكر لله .

فقدموا قداسات ، واحضروا القداس ، شكراً لله ، شكراً له على عظمة مجده ، شكراً لغزارة نعمه وبركاته التى يغمر حياتكم بها ، شكراً لأفراحكم وأحزانكم ، لأرباحكم وخسائركم ، شكراً من أجل أصدقائكم ومن أجل مبغضيكم ، لماذا لا تصبح حياتكم كحياة الملائكة نشيد شكر لله متواصل ، وأنتم تعلمون أن كل شيء يأتيكم من عنده .

ضموا على الأقل شكركم إلى شكر المسيح فى القداس ، لأن مايقدم فى القداس من الشكر هو ذو قيمة غير متناهية .

الفصل الثالث عشر

لماذا يجب على أكبر الخطاة أن يحضروا القداس

(ح) لأن القداس هو ذبيحة استغفار واستعطاف

١ — لعل واحداً يقول : « يا أبت ، إن حضور القداس لا يفيدنى شيئاً . فلست اليوم فى حال تمكننى من حضوره ؛ لأنى قد أهملت واجباتى ، منذ أشهر وسنين ، وعلى ضميرى أحمال من الخطايا الثقيلة الكثيرة . لا ، لست الآن مستعداً ، وأرجو أن أكون يوماً آخر أحسن حالاً » .

— نعم ، يا ابنى ، يمكن أن تكون كلك خطايا ، وأنك لا تقدر أن تتقدم من المائدة المقدسة ، وربما كنت غير مستعد للاعتراف ؛ لأنك لا تكاد تتذكر خطاياك أو تقدر أن تندم عليها . فلا بد لك من الوقت ومن نعمة الله . ولكنك من أجل هذه الأسباب جميعها ، ينبغى أن تذهب إلى القداس .

فلنصغ إلى صوته تعالى يخاطبنا بلسان الكنيسة والمجامع المسكونية :

(١) « إن القداس يقدّم من أجل الخطايا ، والقصاصات المرتبة عليها ومن أجل التكفير ، واحتياجات المؤمنين الأخرى » . ولهذا فهما

كانت خطاياك جسيمة ، فواسطة الحصول على نعمة التوبة هي فى أن تحضر القداس بعواطف التقوى .

(٢) « إن تقدمة القداس ترضى الله وتمنح النعمة وموهبة الندامة ، ولذلك فإنه تعالى بها يغفر أجسم الذنوب والخطايا » .

لنتأمل كيف ننال بحضور القداس مغفرة الخطايا كما تعلمنا الكنيسة :

ا) إن يسوع المسيح ، بموته على الصليب ، قد استحق لجميع من يلجئون إليه مايولى المغفرة من النعم ، وقد كفّر التكفير كله عن كل ما اقترف العالم من الخطايا ، منذ خطيئة آدم الأولى إلى آخر خطيئة يقترفها آخر إنسان .

ب) وهذه النعم النابعة من الصليب تخصص بجميع من يقبلونها فى القداس وفى الأسرار ، مع ما يلزم من الاستعداد .

حـ) صحيح ، إن ذبيحة القداس لا تمحو الخطايا ، لأن المسيح وضع لذلك سر التوبة ، غير أن هذه الذبيحة تمنح ما هو أيضاً ضرورى ، « تمنح النعمة وموهبة الندامة » ، وإن لم يكن ذلك فوراً فعلى الأقل ، فى الوقت المناسب . « فلنقبل إذن بثقة إلى عرش النعمة ، لننال رحمة ونجد نعمة للإغاثة فى أوانها » (عبر ٤ : ١٦) .

ويمكنى أن أضيف مع اللاهوتيين أن الله قد رسم ذبيحة القداس فى الكنيسة ، خصوصاً ، للحصول على « نعمة التوبة » . وكل واحد تقريباً

من آباء الكنيسة لا يتكلم عن القداس ، دون أن يؤكد فى الوقت نفسه أن القداس لم يرسم إلا لمغفرة الخطايا .

٢ ــ وأنتم الذين تعيشون فى حال النعمة ، يجب عليكم أن تذهبوا كل يوم إلى القداس، إذا قدرتم،لتحصلوا على التوبة وعلى مغفرة خطاياكم اليومية ــ وقد حدد المجمع التريدنتى « أن قوة ذبيحة الصليب الخلاصية تخصص بمغفرة الخطايا التى نفعلها فى كل الأيام » .

٣ ــ وهناك غير الخطيئة الواجب علينا أن نحصل على مغفرتها . هناك القصاص الوقتى المرتب على هذه الخطيئة حتى بعد مغفرتها . فما قدمه المسيح على الصليب من التعويض قد كفى ليمحو ما وجب على جميع خطايانا من القصاصات . وهذا التعويض مخصص فى القداس بمن يقدم لأجلهم ، على قدر استعدادهم وقدر ما يحكم به المسيح على هذا الاستعداد .

فنحن ، على مدى الأيام والأسابيع والسنين ، نكدّس علينا ديوناً ثقيلة من القصاصات الزمنية نكاد ، لو فكرنا مرة بثقلها وطول مدتها ، أن نحرم الراحة والنوم، طول الأيام ، وقد يبلغ منا الخوف حدّاً يقضى على حياتنا .

ونريد أن ننسى أن أكثر ما ينزل بنا من المحن فى هذا العالم : من أمراض ، وأحزان ، وإخفاق ، وفقدان أصحاب وأموال ، وغموم من كل نوع ، ننسى أنها قصاص محتوم على خطايانا . فلو كنا نفى ، بدون

انقطاع ، شيئاً من ديننا بذهابنا إلى القداس أو بتقديم قداسات لكى نعوض عما استحقته خطايانا من عقوبات ، لنجونا من كثير من هذه المحن الزمنية التى نقاسيها الآن . إن قلة إيماننا تقصّر نظرنا حتى فيما يتعلق بعقوباتنا وآلامنا الشخصية .

وقد يحرمنا الله ، فوق ذلك ، قصاصاً لخطيئتنا ، نعماً كثيرة قوّية نجهلها . ولكن متى قدمنا الذبيحة الإلهية ، يرضى عنا ويعود فيسكب علينا ما كان تقرر أن يحرمنا منه من النعم ، قصاصاً لنا .

الفصل الرابع عشر

لماذا يجب على المحتاجين أن يذهبوا إلى القداس؟

(د) القداس هو ذبيحة توسل واستغاثة

١ — هبنا لم نخطئ ألبتة ، فالصلاة تبقى دائماً واجباً علينا ، من أجل ما نحن فيه من التعلق المطلق بالله فى كل شيء ؛ ولكن منذ أن أضفنا إلى حال تعلقنا الخطيئة والثورة ، أصبحنا ملتزمين أن نبسط أيدينا نحو السماء ، توسلاً واستغاثة ، إذ يجب علينا الآن أن نطلب العفو والرحمة وكل نعمة أخرى. فلا رجاء لنا بالخلاص بدون صلاة ، وبدون صلاة متواصلة .

لعلكم تعترضون علىّ قائلين : « لا نستحق أن يستجيب الله صلاتنا ، فقد كنا خطأة وناكرى الجميل . ولا يمر يوم بدون أن نهين الله ، فنحن بائسون ، مدنسون ، وقد فقدنا كل حق برحمة الله » .

كل هذا قد يكون صحيحاً . ولكن ما العمل ؟ وما يكون مصيرنا لو أننا فقدنا كل حق باستجابة الله لنا ؟ إن رأفة الله هى خلاصنا ، وقد وعد أن يستجيب لنا إذا صلينا « باسم ربنا يسوع المسيح » .

فيسوع المسيح ، بكونه كاهن البشر ، « قد قرّب من أجلنا ، أيام بشريته ، تضرعات وتوسلات ، بصراخ شديد ودموع ، فاستجيب

له بسبب احترامه » (عبر ، ٥ : ٧) . والآن وهو فى السماء كما هو فى وجوده السرّى فى الهيكل ، « قادر أن يخلص على الدوام الذين يتقربون به إلى الله ، إذ هو حى كل حين ليشفع فيهم » (عبر ، ٧ : ٢٥) .

لا شك أن يسوع المسيح يصلى هو نفسه فى القداس من أجل من يشتركون فى الذبيحة ، وبصفته كاهنهم ، ولا شك أن صلاته مستجابة كل حين . فهو فى القداس محامينا . « إن لنا محامياً عند الآب يسوع المسيح البار » يقدم توسلاتنا الوضيعة ، جاعلاً إياها صلاته بحسب جودتها وصلاحها . فأى ثقة لا يلهمنا اهتمامه بنا ! وأى حب للقداس ! وأى رغبة حارّة فى أن نحضره كل يوم ، وأن نقدّمه فننال من الله ما نحن بحاجة إليه !

٢ — والآن ما ينبغى أن تطلبوا فى صلواتكم ؟ — كل ما تريدون بحيث يؤول إلى مجد الله وإلى خلاصكم الشخصى .

١) اطلبوا نعمة المقاومة لشهواتكم ، وخصوصاً تلك التى هى أصل تجربتكم . إنكم تعلمون ما هى .

٢) اطلبوا ما أنتم فى احتياج خاص إليه من الفضائل . اطلبوا زيادة الإيمان ، والرجاء والمحبة ، والنور حتى تعرفوا إرادة الله وتتمموها .

٣) اطلبوا أعظم حب بنوى للآب ، اطلبوا توجعاً أشد لآلام يسوع المسيح ، وأن تفتكروا غالباً فى حضور الروح القدس وتحبوه حباً شديداً .

٤) اطلبوا نعم الله للبابا ، ولأسقفكم، اطلبوا ازدياد عدد الإكليرس والرهبان والراهبات . فقد أوصانا ربنا خاصة أن نطلب « أن يرسل فعلة لكرم الآب »، صلوا من أجل الدعوات وشجعوها .

٥) صلوا لأجل اتحاد المسيحيين .

٦) اطلبوا نعماً غزيرة لهداية النفوس ، وكرروا : ليتقدس اسمك ليأت ملكوتك .

٧) اطلبوا نجاح مشاريعكم وأن تؤول فى نهايتها إلى مجد الله .

٨) اطلبوا الصحة ، وكل عطايا الطبيعة ، والنعمة التى تعينكم على أن تحسنوا أعمالكم لمجده تعالى حتى موتكم .

٩) اطلبوا خلاص النفوس المعذبة فى المطهر .

١٠) اطلبوا النعم والخيرات لأصدقائكم .

١١) اطلبوا النعمة العظمى ، نعمة الثبات الأخير والميتة الصالحة .

يقول الكردينال بونا فى مقالته عن القداس : لسنا على يقين من نوال ما نطلبه . فقد لا يكون مطابقاً لإرادة ربنا ؛ ولكن إذا صلينا جيداً ، فنحن على يقين من أننا ننال دائماً ما فيه منفعتنا . ولذلك ينبغى أن نذهب دائماً إلى القداس ، واثقين بنتيجة صلواتنا ، معتقدين أنها تكون مستجابة فى كل حين ، بنوع ما أو بآخر ، ما لم نضع نحن مانعاً دون فعلها .

الفصل الخامس عشر

لماذا تتم ذبيحة القداس بصورة طعام ؟

١ — لقد أراد الله ربنا أن تقدّم الذبيحة الإلهية فى القداس بصورة طعام ، لكى نستطيع أن نتحد بها ، عند ما نقبلها فينا بالتناول المقدس .

فما التناول إلا قبول الذبيحة التى وفت ديوننا وفدتنا . ولنا أن نخصصها بنا ، ونشترك بما تقوم به من أفعال العبادة ، والشكر والتكفير والاستعطاف وتكون هذه الأفعال بها ذات قيمة غير متناهية . والله يصرّح بأنها لنا ، فى قوله : « يا ابنى ، كل ما لى هو لك » (لوقا ١٥) .

فأنتم ترون ما فى حضور القداس من الغنى الروحى ، ولا سيا إذا أضفتم إلى حضوره تناول السر المقدس .

وترون أيضاً ما يحمل النفوس التقية على أن تفضل التناول وقت القداس على التناول خارجاً عنه .

٢ — الاشتراك فى القداس والتناول هما أشد أنواع الاقتراب من الحياة الإلهية على الأرض . فالاتحاد بالذبيحة الإلهية ، والاندماج بها وتقدمتنا بيدى المسيح حبرنا الأعظم للثالوث المعبود ، ذلك أعظم شرف ، وأسمى تخصص يمكننا أن نشتهيه فى الدنيا . ذلك ذوق روحانى لا يزال

محجوباً عن حواسنا بستار السرّ ، ولكنه ذوق حقيقى سابق لحياة السماء ، فسوف تكون السماء مناولة أبدية ، ترافقها الأفراح اللذيذة ، وتجلياً يختطفنا كلياً فى الله بالمسيح ربنا .

ويمكنكم منذ الآن أن تسمعوا المخلص يقول لكم : « اثبتوا فى وأنا فيكم » ، وتسمعوا القديس بطرس: « صرتم شركاء فى الطبيعة الإلهية »، والقديس بولس : « أنتم مع المسيح والآب واحد » ، والمجمع المسكونى التريدنتى : « نحصل بالتناول على الحياة الروحية ، وعلى الصحة ، والقوة اللازمة ، لكى نستطيع أن نعبر هذه الأرض الكئيبة ، أرض المنفى ، ونبلغ إلى الوطن السماوى حيث نتمم هذا التناول بلا حجاب » (جلسة ١٣ ف ٨) .

٣ — وكثيراً ما يلمّح القديس أغسطينوس ويكرر الكلام عن فكرة أخرى تتصل أشد اتصال بما نقول عن القداس فيقول : « إن الكنيسة تتعلم بالذبيحة الإلهية أن تقدم ذاتها ذبيحة بالرب » .

وبما أن المسيح هو رأس الجسد ، والكنيسة هى جسد هذا الرأس ، هكذا تتقدم الكنيسة فى الذبيحة اليومية وهى تقدّم المسيح ذبيحة يومية .

إن حياة الكنيسة على الأرض هى حياة تضحية دائمة ، وحياة كل مسيحى يجب أن تكون كذلك . فأين نجد روح التضحية هذه؟ إذا بحثنا عنها فى نفوسنا ، فلن نجدها ، وإذا التفتنا حولنا ، فى العالم ، وفى المجتمع ، وإذا درسنا الطبيعة البشرية ، فلن نجدها أيضاً فى الطبيعة البشرية ،

فلماذا نرى روح التضحية هذا مخالفاً للطبيعة ؟

ــ إنا فى الذبيحة اليومية « نستطيع أن نتعلم كيف نتقدم نحن ذبيحة » . ونصبح واحداً مع هذه الذبيحة باشتراكنا فيها بالتناول السرى أو الروحى .

يقول القديس توما : « من يقدم الذبيحة المقدسة يجب أن يشترك فى الذبيحة . لأن الذبيحة الخارجية المقدمة هى علامة الذبيحة الداخلية التى نقدم بها ذاتنا لله . ولذلك ، فعندما يشترك أحد فى الذبيحة ، يعترف بأنه يُقدم نفسه ذبيحة داخلية » .

٤ ــ ونقدّم الذبيحة بصورة طعام ، لأنها وليمة حب أخوى . يقول المجمع التريدنتى : « هذه الوليمة هى علامة الوحدة ، وختم المحبة ، ورمز السلام والوفاق » ، بين أعضاء الكنيسة جميعاً .

٥ ــ ليت من يهملون الذهاب إلى القداس ، قصداً ، يعلمون ما يخسرون ، وكم يخسرون !

لكن افرحوا وابتهجوا أنتم ذوى الإيمان والتقوى ، الذين تحضرون دائماً القداس ، حتى فى الأصبوحات الباردة ، المعتمة والممطرة ، وتنقصون من ساعات نومكم ، وتزعجون أنفسكم ، وتتغلبون على صعوباتكم ، لقد اخترتم النصيب الأفضل ــ اخترتم الحياة الروحية ، والصحة ، والقوة ، وتذوّق الفردوس على الأرض ، واخترتم الميتة الصالحة والأبدية السعيدة .

الفصل السادس عشر

وجوب حضور القداس

١ — كل مسيحي بلغ سن الرشد يجب عليه — تحت الخطأ — أن يحضر القداس أيام الآحاد والأعياد الإلزامية . . .

٢ — لكن سبباً كبيراً يمكنه أن يعفى من الخطأ الكبير من لا يحضرون القداس فى هذه الأيام المذكورة . والأسباب الكبيرة هى المرض ، وبعد المسافة عن الكنيسة ، وتتميم بعض الواجبات الضرورية المهمة مما لا يمكن تأجيله . وإذا كانت الكنيسة تلزمنا بحضور القداس ، فهى لا تفرضه علينا متى أمكن أن يلحقنا من حضوره أضرار جسيمة أو خسارة كبيرة .

٣ — هذا الإلزام لا يقوم بأن نكون حاضرين وقت الذبيحة فقط أى وقت التقديس ، بل أن نحضر القداس كله . والمعروف عموماً أن من كان حاضراً من تقدمة القداس أو من تلاوة الإنجيل فقد تمم الواجب.

غير أنك لا تخلو من الخطأ ، إذا أنت لم تحضر القداس من أوله عن تكاسل أو إهمال .

٤ — قد يستحيل على كثير من العائلات أن يذهب الجميع إلى لقداس فى وقت واحد ، فيجب أن يبقى فى المنزل شخص أو أكثر.

للاهتمام بالمرضى ، والأطفال ، أو لحراسة البيت . ولذلك يحرص رب العائلة أو ربتها ألا يحرم الشخص نفسه من حضور القداس ، كل الآحاد . وإذا كان فى الكنيسة قداسات عدة ، تنظم العائلة شأنها بحيث يقدر الجميع أن يحضروا القداس .

ويعتبر الخدام فى البيوت المسيحية ، كجزء من الأسرة ، ويعاملون معاملة أفرادها ، فيلتزم الوالدان والأسياد والسيدات أن يرتبوا خدمة المنزل الداخلية ، حتى يمكنوا خدامهم من حضور القداس .

٥ — على الوالدين أكبر مسئولية ، إذا تركوا من بلغ سن الرشد من أولادهم يهملون حضور القداس ليلهوا فى الشوارع ، فإنهم بتصرفهم هذا يقتلون نفوس أطفالهم ، بدلا من أن يرشدوهم ويخلصوهم ؛ إذ يعودونهم أن يعصوا الكنيسة ويحتقروا الأسرار وذبيحة الرب . فيضعفون تأثير الكنيسة ، ويهدمون تعليمها ، ويطرحون أولادهم فى طريق الفساد ، ويربون على هذه الحال ، داخل بيوتهم ، من يشكونهم يوماً أمام منبر الله لينتقم منهم .

نعم ، إن يسوع المسيح يحب الأطفال ، لا لبرارة سنهم ، وحدها ولكن لضعفهم وتعلقهم بغيرهم . فهو ينتقم من الوالدين المذنبين : « لى النقمة وأنا أجازى » ، لأنهم شككوا هؤلاء الصغار وخسروهم ، فأجدر بهؤلاء الوالدين أن يعلق فى عنقهم حجر الرحى ويزجوا فى أعماق البحر ، بدلا من أن يفسدوا أولادهم ولا يرسلونهم إلى حضور القداس .

٦ — قد يحدث أن تضطروا اضطراراً شديداً ألا تذهبوا إلى القداس إما لالتزامكم البقاء فى المنزل لتتميم واجب وإما للقيام بسفر ضرورى .

فما يجب أن تفعلوا فى هذه الأحوال ؟

إن واجب تقديس يوم الأحد لا يزال باقياً ، ولا يمكنكم أن تقوموا به كما هو مفروض . فيمكنكم حينئذ أن تتموه بطريقة أخرى ، مثلا : صلّوا وحدكم ، طالعوا بعض مطالعات روحية ، واتحدوا بالله . فكثيرون من المسيحيين ، فى مثل هذه الظروف ، يقرءون بانتباه صلوات القداس ، متّحدين بالقداس الذى يقدم فى أقرب كنيسة منهم . فيحضرون القداس بالروح . إن الله يرتضى بالرغبات الصالحة . ومتى كنتم فى مثل هذه المواقف ، يمكنكم أن تستفيدوا من قراءة الفصل العشرين الآتى من هذا الكتاب : الاتحاد بالذبيحة الدائمة .

وكثيرون ، متى اضطروا أن يلزموا المنزل لمرض أو لأمر آخر ، يركعون أو يجلسون أمام الصليب ويتجهون جهة الكنيسة القريبة ، وهم يقولون إن المسافة فى نظر الله ليست شيئاً ، ويسمعون القداس على هذه الطريقة بالروح ، متحدين بربنا كما لو كانوا راكعين أمام الهيكل .

وإذا التزمتم أن تحرسوا الأطفال فى المنزل ، فلا تكتفوا بأن تقولوا لهم : يجب أن تصلوا ، بل افحصوا هل هم يفعلون . ثم ساعدوهم ، (فتساعدوا نفوسهم) بأن تتلوا معهم بعض الصلوات ، وتقرءوا فصلا فى أحد الكتب الروحية ، متذكرين قول الرب : « حيثما يجتمع اثنان

باسمى ، أكن أنا بينهم » . فإذا عوّدتم أطفالكم منذ صغرهم هذه الممارسات فلن ينسوها طول عمرهم .

٧ — روى القديس ليونار دى بورموريس قصة ثلاثة تجار كانوا فى بلدة جوبيو . فذهبوا يوماً إلى سوق جسترنو ، وهى مدينة على مسافة بضعة أميال ، وقضوا الليل فيها . وكان الغد يوم أحد ؛ فعرض اثنان منهم أن ينهضوا باكراً ويعودوا إلى جوبيو ، فقال الثالث : أنا مستعد أن أصحبكما ، إذا شئتما أن تتأخرا قليلا ، ونبدأ بسماع القداس ، لأن اليوم يوم أحد . وإذا لم نتمكن من الوصول إلى البلد ، ففى الطريق فنادق كثيرة يمكننا أن نقضى الليل فيها . فرفض رفيقاه أن يستمعا إليه ، وتركاه وحده ، وسافرا باكراً على فرسيهما . ووصلا فى منتصف النهار إلى نهر صغير قد تعاظمت مياهه كثيراً ، لما كان قد تساقط من المطر ليلا ، حتى كاد السيل يقتلع الجسر الخشبى الذى فوقه . وكان على المسافرين أن يعبرا عليه ، فتقدما ، حتى بلغا وسطه ، وإذا بأخشابه المسوّسة تتقصف من تحتهما ، ويهويان مع فرسيهما وأمتعتهما فى السيل الجارف ، ففقدا ، كما يقول القديس ليونار ، « حياتهما ، ومالهما وتجارتهما وربما قد خسرا أيضاً نفسيهما » .

وبعد قليل من الزمن وصل التاجر الثالث إلى النهر ، وكانت مياه السيل فى هذه المدة قد دفعت بجثتى الشقيين إلى البر . فعرف بملء الخوف والارتعاد رفيقيه اللذين احتقرا وصية حضور القداس يوم الأحد ، ودخلا الأبدية على هذه الحال .

الفصل السابع عشر

القداس الكبير وقداس الرعية

١ — رتبت الكنيسة القداس الكبير لكى يتمجد الله به أعظم تمجيد ، وما زيد فيه من الطقوس لم يقصد به إعجاب الحاضرين أو إمتاعهم ، بل تكريم الله ، ملك السماء والأرض أعظم تكريم .

لذلك ، لايحسن بكم أن تكتفوا بحضور قداس قصير ، يوم الأحد، إن استطعتم أن تحضروا القداس الكبير .

فى القداس الكبير ، يقدم ربنا نفسه ذبيحة ، بجلال واحتفال ويعقد فيه مجلسه كاملا ، على الأرض ، وتقوم الكنيسة بكل ما تستطيع لتمجيد مجيئه ؛ ولا شك أن عدد من يحضرون القداس باحترام وعبادة مما يساهم فى عظمة الاحتفال ورونقه .

فهنا داعٍ رصين لحضور القداس الكبير ، وهو تمجيد ربنا وإلهنا يسوع المسيح أعظم تمجيد. أما أن تقول : أنا لا أحب الموسيقى والاحتفالات ، وترى القداس طويلا ، فمعناه أنك لاتهتم بأن تكرم ربنا كما يرغب هو من طرق التكريم والاحترام .

٢ — وهناك سبب آخر يدعوك للذهاب إلى القداس الكبير لأنه

قداس الرعية عادة .

وقداس الرعية هو هذا القداس الاحتفالى الذى يقام فى كنيسة الرعية ، أيام الآحاد والأعياد ، وتلقى فيه العظة والتنبيهات الرسمية .

أما الذين يرون الوقت طويلا ويريدون أن يقتصروا على قداس قصير ، فليسمعوا ما يقول القديس شارل : « من هم هؤلاء المسيحيون الذين يشتكون من طول الصلاة ويبتعدون عن الكنيسة وعن سماع المواعظ ؟ لا شك أنهم لم يتعلموا ذلك من مريم العذراء ، ولا من يسوع ، ولا من يوسف . إن الذين يحبون الله حقًّا لا يشتكون من طول تكريمه .

« وإنى أذكر حادثاً ينبغى أن يخجلهم : إن عدد الكهنة فى القرى التى زرتها قليل جدًّا ؛ وقد لاحظت أن المؤمنين فى أماكن كثيرة ، حيث لا يوجد إلا كاهن واحد ، لا يريدون أن يتناولوا شيئاً من الطعام قبل أن يحتفل بالقداس أكبر احتفال فى كنيستهم . وهنا فى المدينة ، أين الكنائس التى تقام فيها قداسات كبيرة ؟ وأكثر الناس يسرعون لكى يحضروا قداساً قصيراً ليكونوا طول النهار أحراراً ويقضوه فى اللهو والشراب » .

إن ربنا بقى معلقاً على الصليب ، ثلاث ساعات ، وأنتم ترفضون أن تخصصوا نصف أو ثلث هذا الوقت لحضور القداس . . .

الفصل الثامن عشر

الحشمة فى الملابس

لا يليق بالنساء أن يذهبن إلى القداس متبرجات بملابس باهرة وألوان زاهية . بل ينبغى أن يمضين إلى القداس كما لو كنّ على الجلجلة ، يوم صلب يسوع ، فذبيحة القداس هى ذبيحة الجلجلة نفسها ، والكاهن هو نفسه . كونوا على يقين أن ربنا يراقب كل ما نعمل لمجده ، فإذا اكتسينا ملابس محشمة بسيطة حباً له ، أعطانا أجراً ومجداً لا يقدر العالم أن يتصورهما .

وقد ألح الأحبار الأعظمون دائماً على ضرورة الاحتشام فى الملبس . فالمرأة أية كانت ، أميرة أم ملكة ، لا يمكن أن تحضر قداس البابا أو القداس المحتفل به أمامه ، ما لم تكن بملابس سوداء . وهذه العادة جارية فى إسبانيا وفى جميع البلدان التى كانت متعلقة بها ؛ بحيث لا تجسر امرأة أن تذهب إلى القداس ، ما لم تغطّ رأسها وكتفيها بملاءة علامة الاحتشام.

يقول القديس بولس فى رسالته إلى تيموثاوس : « ولتكن النساء بزينة لائقة . متزينات على مقتضى الحشمة والتعقل ، لا بتجعيد الشعر أو بالذهب ، واللآلئ ، أو الثياب الكثيرة الثمن » (١ تيمو ٤ : ٩) .

وفى رسالته إلى أهل كورنتس ، عند كلامه عن القداس يقول :

« أيّ امرأة تصلى ، ورأسها مكشوف ، فإنها تشين رأسها ، لأنها إنما تكون كما لو حلق شعرها . لأن المرأة إن لم تتغطّ فليقص شعرها وإن كان عيباً على المرأة أن يقص شعرها أو يحلق فلتتغطّ » (كورنتس، ١١ : ٥).

وأذاع القديس شارل وأساقفة إقليم ميلان شرائع قاسية خاصة باحتشام النساء فى الكنيسة . فأعلنوا فى مجمعهم الإقليمى أن من تأتى إلى القداس من النساء مكشوفة الرأس ، تسقط فى الحرم .

وفى حياة القديسة أليصابات الهنغارية « أنها لما كان زوجها الملك يجبرها أن تظهر فى القداس بملابس زاهية تناسب مقامها ، كانت تشعر أنها لا تستحق أن تحضر الذبيحة المقدسة ، بهذه الزينة الملكية ، وكانت تتخلى ما أمكنها من حليها حتى من قفازيها ، وتستر يديها بمعطفها وتظل مستغرقة فى صلاتها ، وكان ربنا راضياً كل الرضى من بساطتها وتواضعها، فأظهر لها يوماً رضاه بأن أحاطها بنور باهر رآه جميع الحاضرين » .

ومما يؤخذ على تلك الزينات الفاخرة المخالفة لتعليم القديس بولس ولتعليم الكنيسة أنها قد تكون لها عواقب وخيمة : لقد دفعت مئات وألوفاً من وضعاء العمال والعاملات أن يمتنعوا عن حضور القداس ، خجلا من أن يظهروا بثيابهم الحقيرة . وهكذا يستطيع زيّ خليع أن يطرد الفقراء من الكنيسة التى هى بيتهم . فعلى كل امرأة أن تسأل نفسها : هل تتفق زينتها وهيئتها فى الكنيسة ، وروح التوبة والتواضع ، وما تقتضيه خطاياها ويتطلبه واجب التكفير عنها ؟

الفصل التاسع عشر

فى حضور القداس يوميًّا

١ ـ إذا كان حضوركم القداس يوميًّا ممكناً ، فلا تحرموا نفوسكم من ثمرته أبداً . إنكم تسمعون باكتشافات علمية مدهشة ، ولكن مهما كان لما تحدثه هذه الاكتشافات من تأثير وانقلاب فى المجتمعات ، فإنه لا يوازى ما يحدث فى أحكامنا وأفهامنا من ذهول وانقلاب ، يوم نكتشف ما يفعل حضور القداس فى نفس تقية .

لقد رأيتم أنكم بالذبيحة الإلهية ، وحدها ، تستطيعون أن تقدموا لله عبادة كاملة وشكراً كاملا . وهاتان الغايتان من القداس هما من حق الثالوث خاصة . فأى بركة فى أن نسهم ، كل يوم ، بما يقدمه للثالوث الأقدس ، من العبادة والشكر ، حبرنا الأعظم يسوع المسيح .

يقول القديس شرل بورومى ، فى قانون حياة الشعب : « اسمعوا القداس كل يوم ، إن كنتم قادرين » . والقديس ألفونس ليغورى وفيليب دى نيرى كانا يجبران كل معترفيهم أن يحضروا القداس يوميًّا . تلك كانت عادة القديسين .

« فى البلاد المسيحية حقًّا ، يذهب الجميع ، تقريباً ، إلى القداس

يوميًّا ، كما كانت الحال فى بلاد التيرول المسيحية العامرة ، فقل من لا يحضر القداس يوميًّا ، من الفلاحين . فقد رأيت أنا نفسى كنائس قروية فسيحة ممتلئة من المصلين قبل طلوع النهار ، ولما سألتهم عن العيد الذى يحتفلون به ، قالوا لى مستغربين ، إنه يوم من أيام الأسبوع الاعتيادية ، وإن أبناء الرعية جميعاً متعودون أن يحضروا القداس كل صباح ، قبل أن يمضوا إلى أشغالهم » .

فالقداس فى البلاد العامرة بالإيمان هو جزء من نظام النهار : كالطعام، والشغل والراحة .

٢ — كم من ألوف بيننا ، لو كانوا يقدرون الذبيحة الإلهية قدرها ، لاستطاعوا أن يحضروها، كل الأيام ، أو على الأقل بعض أيام الأسبوع ! فكثيرون ، رغم ارتباطهم بمشاغل ومتاجر ، يفرضون على أنفسهم أن يسمعوا القداس كل صباح . ولكن ، كم بين الطبقات المرفهة والطبقات الكادحة من يسهل عليهم ، لو أرادوا ، أن يحضروا القداس ، غالب أيام الأسبوع ، ولكنهم لا يفكرون فى ذلك ألبتة .

فما رأيكم فى هذا أنتم الذين تقرءون هذه الصفحات ؟ أما تعتقدون أن موتكم يكون أهنأ ، لو كنتم تحضرون القداس مرات أكثر ؟ أما تسير أشغالكم الزمنية سيراً أفضل ، لو كنتم تتشددون وتنشطون كل يوم بما يمنحكم حضور القداس اليومى من النعم ؟ لن تجدوا وسيلة للحصول

على الثبات الأخير والميتة الصالحة أضمن من حضور القداس .

٣ — كان من عادة شخص (قد توفى) أن يقول : إن القداس كان ميناء نجاته . فكان يستعدّ فى مدة ذاك النصف الساعة القصير لمواجهة أشد الأتعاب ، والهموم ، ولما يلاقيه كل يوم فى أعمال وظيفته . وكان يحب أن يُحرم فطوره ولا يحرم قداسه .

وردت فى حياة يوحنا الرحيم ، بطريرك الإسكندرية ، قصة اثنين من الصناع كانا قد تعلما فى مدرسة واحدة ، وتربيا كلاهما تربية واحدة. فتزوج أحدهما ، ورزق عدداً كبيراً من الأولاد كان يعولهم مع آخرين من أولاد أخيه ، وكان سعيداً موفقاً فى جميع أعماله ، وكان قادراً أن يقوم بحاجاتهم اليومية ، ويوفّرلهم كل سنة مقداراً من المال — أما الصانع الآخر فكان دائماً فى ارتباك ، لم يستطع يوماً أن يقوم باحتياجاته ، وكان كل شيء ضده ، فالتقى مرة برفيق حياته السعيد ، وسأله ما كان يصنع حتى ينجح فى جميع أموره ، فى حين أنه هو لم يوفق فى حياته إلى عمل لائق ، فقال له رفيقه : « غداً صباحاً أجيء وأريك سرّ نجاحى » . وجاء فى الغد باكراً وطلب منه أن يرافقه إلى الكنيسة . فاستغرب الصانع المسكين ؛ ثم تجدد العمل نفسه فى اليوم الثانى وما بعده . فحينئذ ، قال المسكين لصاحبه : « إن يكن كل ما يجب أن أفعله لأخرج من البؤس هو فى أن أذهب إلى القداس ، فلا حاجة أن تعود بعد اليوم ، فإنى أعرف

طريق الكنيسة » . فقال له صاحبه السعيد : هذا كل ما يجب أن تصنعه . فأنا لا أذهب يوماً إلى أعمالى ، قبل أن أحضر القداس ، أولا ، وأجتهد أن أسلك بحسب كلام الإنجيل : « اطلبوا أولا ملكوت الله وبرّه والباقى جميعه يُعطى لكم » (متى ٦ : ٣٣) .

فتبع الصانع الفقير نصيحة رفيقه القديم ، ولم يلبث أن باركه الله ومنحه ، منذ هذه الحياة ، ما لم يعرفه من قبل ، من النجاح والرخاء .

هذه نماذج لبركات زمنية سببها حضور القداس.ولكن إن لم يكن مثل هذه البركات دائماً ثمرة حضور الذبيحة المقدسة ، فإن هناك بركات أخرى أبدية لا توصف هى ثمرتها الطبيعية ، ولا يمكن تقديرها إلا يوم تعاينونها فى نور المجد الأبدى .

فشكراً لله ، إذ جعل حولنا أمثلة كثيرة ، لأشخاص مثقلين بالمشاغل يذهبون يومياً إلى القداس، وكلهم يشهدون بأنهم ربحوا وليس بينهم من يقول إنه خسر .

فمن استطاع أن يحضر القداس كل يوم من أيام حياته واحتقر قصداً هذا الإنعام الفائق ، دلّ على حماقة وغباوة تحير العقل طول الأبد .

الفصل العشرون

الاتحاد بالذبيحة الدائمة

جاء فى نبوءة ملاخى : « من مشرق الشمس إلى مغربها وفى كل مكان ، تقرّب لاسمى تقدمة طاهرة » (ملاخى ، ١ : ١١) .

هذه النبوءة تتحقق بالقداس فى الكنيسة المقدسة ففيها وحدها، سواء أنظرتم إلى طريقة التقدمة أم إلى الذبيحة المقدّسة ، التقدمة الطاهرة والذبيحة المقدّسة فى كل مكان .

إن ذبيحة القداس لا تنقطع عن وجه الأرض أبداً ؛ بل تستمر ، ولا تبرح تتقدم ، نهار ليل ، حتّى أصبحت الشمس دليلاً عليها ، ومبشرة بقدوم الرب . فلا تكاد أشعتها تضيء أفقاً من الآفاق ، إلا نهض الكهنة لتقدمة الذبيحة . وكلما ارتفعت ، أيقظت سكان الدنيا ، تباعاً ، من رقادهم ، وأخذت الكنيسة تصلى وتوالى تقدمة القداس الطاهر من أجل غاياتها الأربع .

وليس الزمان ، ولا المكان والمسافة سوى أعراض يمكننا التفلّت منها ، فهى أعجز من أن تقطع اتحاد نفسنا الروحانى بحبرنا الأعظم يسوع المسيح وبالذبيحة الإلهية. فنستطيع أن نرافقها فى مسيرها فى أرجاء الدنيا كلها.

ولا شيء يمنع القلب المحب من السفر ، ولا شيء يمنع النفس المختلية بالله من قطع المسافات مهما بعدت ، بلا تعب ولا عناء . وتصبح المخيلة طوع النفس المحبة الأمينة ، تقدم لها أجنحة تطير بها إلى مختلف الأقطار ، لكى تنحنى أمام كل مذبح يقدّم عليه قداس ، وتؤدى أفعال العبادة والشكر .

أتقول إنك لا تقدر أن تذهب إلى القداس ؟

إن الوقت لا يزال ليلا ، وأنت مستيقظ ووحيد ، طوال ساعات الليل . وربما كنت مريضاً ، أو متعباً من كثرة الهواجس وطول الحياة . فجسمك لا يجد راحة ، وذهنك وقلبك كليلان . فأحى إيمانك ، صابراً ، وسلّم أمرك إلى الله ، ثم طر بفكرك إلى المذابح التى يقام القداس عليها . فالذبيحة الإلهية تقرّب فى كل ساعة من ساعات النهار والليل .

فهناك أقطار يقام فيها القداس فى كنائس فخمة ، غنية وفنية ، والمؤمنون فيها كثيرون يدخلون ويخرجون منذ الفجر إلى الظهيرة ، والقداسات تتوالى ، على مذابح فاخرة ، فى بازيليك وكاتدرائيات ، أو فى كنائس عادية ومعابد خاصة ، فى قرى هادئة ، فى الجبال ، ووسط سهول الزيتون وكروم العنب ، أو فى مدن تغصّ بالسكان ؛ وفى جميعها شموع تنار ، وأجراس تقرع تدعو الجميع إلى حضور القداس ، ولا تتوقف إلا حوالى الظهر .

وتقدم الذبيحة النقية فى بلاد أخرى فى معابد منعزلة ، وكنائس

متواضعة ، كل شيء فيها يدل على الفقر والاضطهاد : والمؤمنون هناك قليلون ومشتتون .

وفى البلاد القطبية ، هناك المرسلون تحت الثلوج ، يُعفون مما ليس جوهرياً فى طقس القداس ، فيقدمون الذبيحة ، بين جماعة الإسكيمو على مذبح منحوت من الجليد .

وفى مروج أمريكا يعيش « الثوب الأسود » (لقب المرسلين) بين قبائل الهنود الرحل ، يقدّم القداس ، تحت قبة السماء ، بين الهنود ، وهم يصلون حوله بغاية الخشوع .

وفى الأقاليم الاستوائية الحارة ، أقام المرسلون الإسبانيون ، والبرتغاليون والإيطاليون ألوف المذابح ، يقدمون عليها ذبيحة المخلص الإلهى حيث يعبده السودان ، والهنود ، وأهل مالى ، وألوف من الشعوب المختلفة ، وهو يعرفهم جميعهم بأسمائهم ، ويدعوهم إلى الخلاص الأبدى .

وأبعد من هؤلاء اليابانيون ، والصينيون ، والتتر ، وسكان أستراليا ؛ ونيوزيلندة وجزائر البحار ، وكل منهم يتجه إلى الكنيسة فى ساعات تختلف عن الأخرى .

وفى العالم كثير من النفوس التقية ترغب ، عن عبادة خاصّة ، أن تسمع القداس الدائم ، أن تشترك فى كل قداس ؛ فتسافر بالفكر والروح ، من قطر إلى قطر ، وتزور أغنى الكنائس وأفقر المعابد ، وتعبد الرب ، حيث لا يعبده أحد .

فأنت قادر إن كنت فى دارك أو كنت غارقاً فى أشغالك — إن شئت — أن تتفلّت من الزمان والمكان والمسافة ، وتنحنى بالفكر ، أمام هياكل مقدسة فى أقاصى الأرض . وما أسعدك ، إن كانت أفكارك تحملك هكذا إلى القداس ! فوّجه قلبك ، وأنت ماض فى عملك ، إلى كنيسة يقام فيها القداس وقل : « يا يسوع مخلصى ، إنى أريد أن أحضر ، ولو بالفكر ، الذبيحة الإلهية ، وأشرك نيتى بجميع القداسات التى تقدم اليوم فى الدنيا كلها » .

فهذا التعبّد للقداس الدائم هو جزء من رسالة الصلاة ، وتوجد صور صغيرة تبيّن البلدان ، وموعد القداس ، فى كل ساعة من ساعات النهار والليل .

وإليك موجزاً لذلك :

الاحتفال بالقداس يكون بين الفجر والظهر (وقد سوّغ المجمع الفاتيكانى تلاوته فى المساء وفى أية ساعة من النهار عند الضرورة) .

(١) من الساعة ٥ صباحاً إلى العاشرة فى فلسطين ، وإثيوبيا ، ومصر ولبنان وآسيا الصغرى .

(٢) من الساعة السابعة إلى الثانية عشرة ، على ألوف المذابح فى بلاد أوربا وغربى أفريقيا .

(٣) ومن الساعة ١٢ إلى المساء ، فى الأرجاء الواسعة من أمريكا الشمالية والجنوبية .

(٤) ومن الساعة ٦ إلى ٢ صباحاً ، فى أستراليا ، ونيوزيلاندة ، وبولنديزى ، واليابان ، وكوريا ، والصين ، والتونكين وبرمانيا .

(٥) ومن نصف الليل إلى الفجر فى بلاد الهند .

فهذه الهياكل التى يتقدم عليها ربنا ذبيحة خلاصية هى أبهى من نجوم السماء ، وقد شاء الله أن تنتشر على هذه أرض الظلمة والخطيئة ، رحمة منه بالبشر . فإنه تعالى ، كما يقول معلمو الكنيسة والقديسون ، يشفق على الأرض بسبب هذه الذبيحة اليومية النقية من كل عيب .

« فمن مشرق الأرض إلى مغربها ، اسمى عظيم فى الأمم ، وفى كل مكان تقرب لاسمى تقدمة طاهرة ، لأن اسمى عظيم فى الأمم ، قال رب الجنود » (ملاخى ، ١ : ١١) .

الفصل الحادى والعشرون

فائدة تقديم قداسات عن أنفس الموتى

١ — كلما كان مقدمو الذبيحة مرضيين لله ، أى كلما كانوا قديسين ، (ولست أتكلم هنا عن الكاهن وحده بل عن المؤمنين الذين يشتركون معه فى تقدمة الذبيحة) كان أجرهم أعظم ، وكان الله أقرب إلى استجابة صلواتهم . ولذلك يؤكد البابا إسكندر قائلا : « كلما كان الكاهن قديساً ، كان أكثر استمطاراً للنعم على المؤمنين الذين يحضرون قداسه » .

وتعلمنا الكنيسة : « أن ذبيحة القداس لا يمكن أن ينقص قيمتها عدم أهلية الكاهن ولا رداءة من يقدمونها » .

وإذا نظرنا إلى الذبيحة فى ذاتها ، نرى أن ثمرتها مرتبة ، دون التفات إلى استحقاق مقدمها المنظور أو عدم استحقاقه . لأن ثمرة القداس وتوزيعها مختص بالكاهن الأصلى والمضحى الأول ، يسوع المسيح .

٢ — يقول اللاهوتيون : إن للذبيحة ، بطبيعتها وبوضعها ما يسمى ثمرة عامة ، وثمرة خاصة ، وثمرة متوسطة . فالثمرة العامة هى للكنيسة جمعاء ، والثمرة الخاصة حرّة يعينها الكاهن بحسب نيته . وكل كاهن

عند تلاوته القداس يجب أن تكون عنده نية خاصة يوجه بها ثمرة القداس إلى نية معينة .

فالانتفاع بهذه الثمرة الخاصة هو إنعام كبير يولى من يناله مغفرة ما هو مرتب على خطاياه المغفورة من العقوبات الزمنية ، ويوليه غزارة جديدة من النعم وهبات ثمينة يستفيدها من كنز آلام المسيح الإلهية .

كان ويكليف الضال يقول : إن الصلوات الخاصة وتوجيه استحقاق الذبيحة الخاص لا ينفعان النفس أكثر من الصلوات العامة ، فحرمت الكنيسة ضلاله هذا . وقد اعتقدت دائماً أن الصلوات الخاصة المقدمة لغاية خاصة هى ذات فاعلية قوية .

عندما يقدم الكاهن القداس على نية خاصة ، علينا أن تؤمن أن ما يعمله رسمياً يثبته معلمه الكاهن الأكبر ، إلا إذا كانت هذه النية الخاصة تحتمل فى ذاتها شيئاً ناقصاً أو غير لائق .

٣ ــ وأكبر جميل يمكن الكاهن أن يوليكم إياه ، بعد تقدمة الذبيحة من أجلكم ، أن يذكركم فى القداس . فذلك شرف وخير روحى عظيم أن يسميكم رسمياً فى الأسرار المقدسة ، فكأنه يقدمكم ، خاصة ، ويذكر كل متاعبكم لربنا يسوع المسيح وللثالوث الأقدس .

٤ ــ لقد كانت الذبائح فى العهد القديم كالعهد الجديد تقدّم على نيات خاصة أو من أجل أشخاص معينين .

وقُدمت الذبائح أيضاً من أجل الأموات ، وهذا أكبر دليل على

أما يمكن أن نظهره من المحبة والعطف نحو النفوس المنتقلة من هذه الحياة بأن نوجّه إليها استحقاقات الآلام بتقديم القداسات من أجلها ، وهى تحفظ الجميل لمن يحسنون إليها ، وتتشفع فيهم أمام الله .

لما كان القديس بطرس دميان قاصراً ، وُضع تحت حراسة أحد إخوته ، فكان هذا الأخ يسيء معاملته ، ويحرمه من الطعام ، ويقسو عليه كأنه عبد لا أخ له . فحدث يوماً أن حصل بطرس على مقدار من المال يمكنه به أن يسدّ جوعه وينجو من بؤسه ، لكنه لم يفعل وفضل أن يسلّم ما معه إلى كاهن وطلب منه أن يقدم قداسات عن نفس والده . وهو يروى أنه من تلك اللحظة قد شعر بشكران النفس التى أسعفها ، إذ خرج حالا مما كان فيه من الضيق والمشقة ، ثم أصبح قديساً عظيماً .

٥ — أما القديس ليونار دى بورموريس ، فإنه ينصحك بأن تقدم قداسات من أجل نفسك ، مدة حياتك ، فذلك أفضل من أن تبقيها إلى ما بعد وفاتك . وهذا القديس يعتقد أن قداساً واحداً يقدم عنا مدة حياتنا هو أنفع لنفسنا من قداسات كثيرة تقدم عنا بعد موتنا . فتلك عادة جارية عند الشعب الإرلندى التقى ، وقد جرت مثلا ، فيقال : « قداس قبل الموت خير من اثنين بعده » .

وهذا صحيح ، ومعتدل وحسن أن ندفع أكثر ما نستطيع من ديوننا ، ما دمنا أحياء وقادرين ، بدلا من أن نؤجل هذه القداسات إلى ما بعد الموت لنفى ما تراكم علينا من الديون طول الحياة . إن البعض يستخفون

بالمطهر ، ولكن نفوساً لم تقف فيه غير دقائق حسبت أنها بقيت فيه أجيالاً ، لشدة ما قاست فيه من ألوان العذاب .

ويروى القديس ليونار أن تاجراً من جنوى كان غنيًّا ديناً ودنيا قد سبب عند موته كثيراً من الشكوك ، لأنه لم يترك شيئاً لإقامة قداسات عن نفسه . ولكن بعد قليل ، حل الإعجاب محل الشكوك ، حين ظهر أنه كان قد قدّم ألوفاً من القداسات عن نفسه مدة حياته .

وما نقوله عن فائدة تقدمة القداسات عنا ، مدة حياتنا ، نقوله عن الأعمال الصالحة التى نباشرها ، مدة وجودنا على الأرض ، فقوموا بالتضحيات واحرموا نفوسكم ، لكى تعاونوا على نشر الإيمان وعلى التربية الدينية ، وتأسيس المشاريع الخيرية ، وإسعاف الفقراء ، فهذا أنفع لكم من توفير المال لإقامة هذه المشاريع الخيرية ولتقديم القداسات عنكم ، بعد وفاتكم .

الفصل الثانى والعشرون

خادم القداس

يقول اللاهوتيون : كلما زاد اشتراكنا فى ذبيحة القداس ، زاد ربحنا منها . فالذين يخدمون القداس هم أوفر حظاً من سامعيه ، لأن خدمة القداس أقرب ما تكون من تقدمة الذبيحة .

فمتى خدمت القداس بإيمان وعبادة ، نلت نعماً أكثر وربحت أجزاً أوفر مما لو سمعته فقط .

ومن يخدم القداس ، يكن وسط الملائكة . والملائكة يغارون منه ، لأنه يقوم بوظيفة لا يستطيعون أن يقوموا بها إلا بالشوق . وهم ينظرون إلى خادم القداس نظرهم إلى واحد منهم ، إذ قد صار وهو بشر ، كروح طوباوى يخدم ملك الملوك ورب الأرباب ، يسوع المسيح الإله الإنسان .

كان القديس توما الأكوينى ، بعد تقدمته قداسه ، يخدم قداساً آخر للشكر . والقديس توما مور أكبر وزراء إنجلترة كان يعتبر أكبر الشرف أن يخدم القداس ؛ فقيل له يوماً : إن الملك قد يتكدر لو علم أن وزيره يتنازل ويخدم قداس كاهن مسكين ، فقال الوزير : لا يمكن لسيدى الملك أن يتكدر لو علم أنى أخدم سيده ملك الملوك ورب الأرباب.

وكان من عادة الملك ونسلاس ، ملك بوهيمية ، أن يخدم القداس بمنتهى الاحترام ، ولا يرى شرفاً ملوكياً أعظم من خدمة القداس لكاهن فقير . فكان يجثو على درجة الهيكل العارية ويحترم كل ما يتعلق بالذبيحة المقدسة ، حتى إنه كان يزرع بيده القمح فى حقل ، ويحصده ، ويطحنه ليعدّ بيديه القربان للتقديس .

ولا يزال روح الإيمان هذا عند كثيرين من العظماء والعلماء فإنهم يعدّون خدمة القداس والتناول اليومى أعظم شرف وأكبر تعزية .

رأت القديسة متيلدة نفس راهب علمانى ظهر لها مكللاً بنور ساطع من المجد ، وقال لها : إنه نال هذا المجد مكافأة له عما استطاع أن يخدم من القداسات الكثيرة ، بكل ما أمكنه من الإيمان والعبادة .

ولا حاجة إلى القول إن من يخدمون القداس بإهمال وبغير احترام لا يكسبون أجراً بل يعرّضون أنفسهم لغضب الله .

الفصل الثالث والعشرون

كيف يجب أن نمضى وقت القداس ؟

طريقة أولى

روى القديس ليونار أن أخاً فاضلاً كان يحضر القداس دائماً على أكمل حال ، وهو يقرأ ما كان يدعوه « ثلاثة الأحرف » :

١ — « الحرف الأسود » ، ويعنى به التبحر فى خطاياه كلها ، وكان يصدر حينئذ أفعال تواضع ، وتوجع ، وندامة من أول القداس إلى الإنجيل .

٢ — « الحرف الأحمر » ، ويعنى به التأمل فى آلام يسوع المسيح ، من الإنجيل إلى التناول .

٣ — « الحرف الأبيض » ، ويعنى به أنه يتحد بكل قلبه وبكل ذهنه بطهارة يسوع المسيح وقداسته. فيتناول سرياً أو روحياً ، ثم يسأل المخلص أن يستولى على نفسه ويعطيه عند موته المجد الأبدى ثمرة ذبيحته المقدسة . فكان بفضل هذه « الأحرف الثلاثة » ، أى بتأمله وصلواته ، يشغل الوقت بنوع مفيد للغاية طول مدة القداس .

طريقة ثانية

يرى القديسان ألفونس دى ليغورى وليونار دى بورموريس أن نقسم وقت القداس إلى أربعة أقسام ، نخصص كل قسم منها بالتأمل فى إحدى غايات الذبيحة :

١ — فمن أول القداس إلى الإنجيل قدّم أفعال استغفار ، أى أقر بخطاياك ، شاعراً بالخوف مما استحققته من العقوبة عليها ، واطلب من الله أن يرتضى بقداسة يسوع وموته ، تكفيراً عنها ؛ ثم التمس منه أن يمحو كل القصاص المرتب عليها أو جزءاً منه . اطلب هذه النعم ، معتمداً على آلام ابن الله الموجعة ، مصدراً أفعال ندامة صادقة ، حتى الإنجيل ؛

٢ — ومن الإنجيل إلى التقديس ، قدّم لله أفعال الشكر . . فاشكره لأنه خلقك ، وافتداك ، ومنحك الإيمان ، ولأنه أرسل ابنه إلى العالم لكى يعلّمك ويخلصك . ثم تذكر جميع النعم الروحية والزمنية التى أسبغها عليك أنت ، وعلى من تحبهم ومن تلتزم أن تصلى من أجلهم .

٣ — ومن التقديس إلى التناول ، قدم أفعال سجود وعبادة . وبينما أنت ساجد للجلال الإلهى المحجوب وراء الأعراض المقدسة ، كرر ، بلا انقطاع : المجد للآب . . . إلخ . إكراماً ومدحاً للثالوث المعبود . ثم اسجد لناسوت يسوع المقدس فاديك ، واسأله أن يقدم هو نفسه سجودك مقترناً بسجوده ، ليقبله الآب القادر على كل شيء .

٤ ــ ومن التناول إلى آخر القداس أشغل نفسك بأفعال الابتهال ، ملتفتاً إلى نفس المسيح الذى تناولته ، سرياً أو روحياً ، أن تشفع بك لدى الآب ، واسأله أن يقبل توسلاتك ، واعرض عليه رغباتك ؛ كأن تطلب زيادة فى إيمانك ، ورجائك ، ومحبتك ، أو انسحاقاً فى ندامتك ، أو صبراً فى محنتك ، أو أى نعمة أخرى .

فإنك بتأملك فى غايات الذبيحة الأربعة تتم بالاتحاد مع يسوع المسيح ، واجباتك الأربعة العظمى نحو الله .

طريقة ثالثة

وهى أحسن طريقة لسماع القداس وتقوم بأن تتابع حركات الكاهن وكلماته وتتأمل فيها :

١) عند وصول الكاهن إلى المذبح

قل : أريد يا إلهى أن تقبلنى اليوم شريكاً فى هذه الذبيحة المقدسة .
إنى أومن أنها الذبيحة نفسها التى قدمتها على الصليب لأجلى .
وأومن بأنك تجدد تقديمها الآن لأجلى .
فخفف عنى ، بحقها ، مرارة نفسى ، فأنت وحدك قوتى وملجئى ، وهبنى فرح القلب . فاتكالى كله عليك .

٢) الكاهن يرسم إشارة الصليب

قل : بسم الآب والابن والروح القدس . ليكن صليبك ، يارب ،

حافظاً لى من جميع الشرور الحاضرة والمستقبلة ، ويشرك حياتى بحياتك وآلامى بآلامك .

٣) الكاهن يقبل المذبح

قل : مذبحك ، يا إلهى ، أقدس مكان فى بيتك ، وفوقه تحضر بناسوتك ولاهوتك . هبنى أن أشعر بحضورك فى نفسى .

٤) الكاهن : المجد لله فى الأعالى . . .

قل : المجد للآب والابن والروح القدس ، الآن وكل أوان وإلى الأبد . يا كلمة الله ، يا من شئت أن تتجسد لأجل خلاصنا من والدتك القديسة مريم الدائمة البتولية ، وقد صلبت ، أيها المسيح الإله ، وبموتك وطئت الموت ، أنت أحد الثالوث القدوس الممجد مع الآب والروح القدس ، آمين .

٥) الرسالة . . .

قل : كما كان بنو إسرائيل يجلسون على شاطئ الأنهار ، فى المنفى ويستمعون إلى صوت الأنبياء يحثونهم على الرجاء ، وكما كانت الكنيسة فى الأجيال الأولى تصغى إلى رسائل رسلك يفسّرون لها فرح المخلص وحبه . وكما كان شهداؤك ، فى أيام المحن ، يجدون فى هذه النصوص تفسيراً لتضحياتهم . هكذا ، يا رب ، ليجدنى كلام شهودك ثابتاً فى إيمانى ، حارًا فى عبادتى ، مستعدًا لسماع صوتك فيملؤنى قوة ورجاء، هذا الصوت الذى

صرع بكلمته ، على طريق دمشق ، عدوك شاول وفطر قلبه ، فأصبح القديس بولس الرسول .

٦) الإنجل ، كلمة الله :

هى لحظة خطيرة ، تسمع فيها صوت ابن الله المتجسد .

هو المسيح يخاطبك ، يانفسى ، فأصغى . إن قصة حياته ، ورسالته سيان . هو الطفل الذى تجسّد من الروح القدس ومن مريم العذراء ، وولد فى مغارة ، واشتغل نجاراً ، ووعظ وعلّم ، على تلال الجليل ، وعلى شاطئ بحيرة طبرية ، وشفى غلام قائد المئة ، وسكّن أمواج البحيرة ، وأقام لعازر من القبر . وهو المثال الفريد للإنسان الكامل . فأصغى إليه ! علم الناس أن يحب بعضهم بعضاً ، وأن يغفروا لأعدائهم ، ويعاملوهم كإخوة ، وأوصاهم أن يكونوا أطهاراً ومتواضعين ، كما كان هو طاهراً ومتواضعاً .

وعلمهم أن يعيشوا فى حضرة الله ، مثله . . .

وعند ما يعييه الحقد والخيانة ، ويسلّم إلى العار ، وعند ما يتألم جسمه البشرى أكثر مما تستطيع أن تتألم ، ويموت كما تموت بل موتاً أفظع ، وأهول ، وأشد عاراً ، فحينئذ يعلن بمثله أن الموت قد ابتلع بالغلبة .

وهكذا فداك ، ووعدك بالحياة .

فأصغ إليه ، يا قلب ، أصغ إليه .

٧) قانون الإيمان :

اتلُ مع الجميع واقفين : نؤمن بإله واحد . . .

أول كنيسة أدخلت قانون الإيمان فى القداس كنيسة أنطاكية ثم القسطنطينية، وبعدها إسبانيا ، ففرنسا ، فألمانيا ، ثم رومة . .

٨) الكلام الجوهرى ، كلام التقديس هو « قمة القداس » . الكاهن يقدس الخبز والخمر ، تذكاراً للعشاء السرى ، ويجدد ما صنع يسوع ، إذ قدم جسده ودمه ذبيحة لأجل خلاص العالم .

قل (عند رفع القربانة) : أنت حاضر ، يا إلهى ، هنا ، على المذبح .فأنا أسجد لك،وأومن أنهذه القربانة التى أراها هى أنتنفسك . هبنى أنأحبك يا مخلصى وأتعلق بك بإرادتى، وقلبى ، وذهنى ، وكل قوتى.ليكن ، يارب ، جسدك ودمك لعفاف نفسى ، ومغفرة خطاياىوللأنس بك ، لا لمحاكمتى ، ودينونتى .

٩) الكاهن يتذكر الصليب ، والقبر ، والقيامة ، وصعود الرب إلى السماء ، وجلوسه عن يمين الآب ومجيئه الثانى.

فكّر وقل : لو كنت بين الجموع التى كان يسوع يخاطبها،فبأى فرح كنت أصغى إلى كلامه ؛ ولو سمعته يدعو لعازر أن اخرجْ من القبر ، فأىّ هزة طرب كانت تعترينى !

ولو أنى حضرت العشاء الأخير . . . أو وقفت مع المجدلية
ويوحنا عند الصليب .. ورأيت ، صباح الفصح ، الحجر
مدحرجاً ، والقبر فارغاً ، فأى حب ! وأىّ لوعة ! ثم أى
رجاء كان يستولى على !

كل تلك الكلمات ، والإشارات ، والصلوات ، يا نفسى ،
هى تلك المأساة ، ذلك السر العجيب ، سرّ الفداء — الكفارة
عن الخطيئة .

كل هذا من أجل خلاصك الأبدى .

١٠) الكاهن يذكر جميع القديسين ، والمتوفّين ، والأساقفة والكهنة
والكنيسة الجامعة ، والمسكونة كلها . .

قل معه : اقبل يارب صلاتى من أجل إخوتى الذين لا يزالون فى الظلام .
من أجل من أحبهم ، ومن لم أكن أحبهم ، وهم جميعاً فى
ذاكرة قلبى ؛

من أجل من صلّوا قبلى فى هذه الكنيسة كما أصلى أنا الآن ؛
من أجل نفسى ، تكفيراً عن ذنوبى قبل حلول أجلى ؛
ومن أجل جميع من سأنضم إليهم قريباً من الأموات ولا رجاء
لهم إلا فى استحقاقات صليبك الكريم .

خلّصهم ، يا رب ، وخلصنى ! وبما أن خطاياى تهددنى بالموت
والعقاب ، فأرجو أن دمك الثمين يطهرنى قبل حلول الأوان .

١١) الكاهن: أهّلنا أيها السيد لأن نقول: أبانا الذى فى السماوات. فكر وقل بعد تلاوتها : هذه الصلاة ، أنت ، يارب علمتنا إياها. وما زال أبناؤك يتلونها جيلا بعد جيل . وقد قلت لى فيها إن الله هو أبى وإنه اتخذنى ابناً وجعلنى وارثاً فى ملكوته .

فكن يا أبت حاضراً بيننا على الأرض ، كما أنت فى السماء .

احفظنى فى الحياة ، ما شئت ، وارزقنى العيش ، بتعبى ،

واغفر ذنوبى وهبنى أن أعامل غيرى بمحبة كما تعاملنى .

١٢) الكاهن يقسم حمل الله ابن الآب الأزلى الذى يكسر ولا ينفصل ، ويؤكل كل حين ولا يفنى ، ويقدّس المشتركين فيـــه .

فكر وقل: هذا الخبز الذى كسرته أنت نفسك فى العشاء الأخير ، ووزعته على رسلك ، هذا الخبز الذى كان شهداؤك يتعاطونه فيما بينهم ، قبل أن تطحنهم أضراس الضوارى طحن القمح ، هذا الخبز الذى يجدّده القداس الدائم على وجه الأرض كلها . هبنى أن أقبل هذا الخيز ، لا لنفسى وحدى ، بل من أجل جميع المؤمنين باسمك ، ومن يعرفونك ومن يجهلونك .

١٣) التناول .

الكاهن: أومن ، يارب ، وأعترف أنك أنت المسيح ابن الله الحى ، الذى جاء إلى العالم ليخلص الخطأة الذين أنا أولهم . وأومن بأن

هذا الخبز هو جسدك الطاهر ودمك الثمين . اقبلني اليوم شريكاً في عشائك السرى ، يا ابن الله .

فكّر وقل : أى كلام فى لغات الأرض يمكنه أن يعبر عما أريد أن أقول فى هذه اللحظة ؟ إن فرحى لم يبق من الأرض . أشعر بنور وجهك ، يا رب ، يشرق على أعماق روحى ، ويسكرنى بعذوبة حبك . أنت فىّ وأنا فيك . كل هذا سرّ ، تسكت عنده نفسى وتعبدك روحى .

أى شكر بشرى يكافئ عطيتك السماوية ، وأى حب يوازى ما ضحيت من أجل حبك ؛ فليس من تقدمة ولا من موعد إلا وهما دون تقدمتك .

ماذا أقدّم لك ، يا رب؟ وماذا أقول لك ؟ — لا شيء سواك . إنى أقبلك صامتاً مستسلماً .

وأسألك ، ذكراً ليوم مناولتى الأولى ، أن تفعل بى ما تشاء ، وأن تحفظنى كما تريد أن أكون .

اقبلنى اليوم ، شريكاً فى قربانك ، متحداً بك بآلامى ، وأفراحى ، بآمالى وخيبة آمالى .

هبنى أن أبقى كطفل بين يديك .

الفرح والسلام

فرح وسلام

« يا إخوتى ، افرحوا فى الرب ، كل حين ، وأقول أيضاً افرحوا . لا تهتموا ألبتة . . . وليحفظ سلام الله الذى يفوق كل فهم قلوبكم وبصائركم فى يسوع المسيح » .

(فيلبى ٤)

تمهيد

قال سليمان الحكيم : « لقد رُزقت نفساً صالحة »

(سفر الحكمة فصل ٨ : ١٩)

نحمد الله أن ليس سليمان وحده يستطيع أن يصرّح بمثل هذا القول ، فإن النفوس الصالحة بين فضلاء المسيحيين كثيرة ، لا تحصى .

وهذه النفوس الصالحة تمتاز بميلها إلى الخير أكثر من ميلها إلى الشر ، كما تمتاز بلطافة فى الضمير قد تتحول أحياناً إلى ارتباك ، مع طواعية واستقامة وبساطة لا مثيل لها .

غير أن عيبها الأكبر أنها تتمسك وتتوقف فى الجانب السلبي من الكمال المسيحى ، أى فى درس عيوبها ، فلا تستفيد من ذلك شيئاً بل قد تخسر كثيراً . وحسبها خسارة ما تضيعه من الوقت سدى .

مثل : بينما كان القديس بركمنس يحدّث مرشده الروحى فى رياضة ، قال له : «إنى لم أستفد شيئاً من ممارسات الأسبوع الأول ...» . فكم من نفوس صالحة تستطيع أن تقول هذا القول نفسه .

ولقد كانت تربح أكثر ، لو أنها اشتغلت بالإيجابى من الكمال

أى بأن تتحد أولاً بربنا ، فذلك أخص ممارسات الحياة الباطنية[١].

وسبيلها إلى النجاح والتقدم السريع أن تسكن فى السلام والفرح .

إن إبليس عدو البشر يحاول دائماً أن يبشّع النفوس ويدنّسها أو أن يقلقها ويروّعها[٢] .

أما الروح الصالح، فبخلاف ذلك يكون على مثال يسوع نفسه. يصوره القديس أغناطيوس جميلا ومملوءاً نعمة — يولى النفوس المستقيمة الفرح والسلام لكى يساعدها على التقدم .

فليكن كل منا لغيره ، ولنفسه ملاكاً وروحاً صالحاً ينشر حوله السلام والفرح ، ولنحاول جميعاً إدراك ذلك بالعمل ، أى بالدرس ، والمجاهدة ، ومحاربة الروح الخبيث وبالصلاة خاصّة .

---

(١) متى كنا متحدين بربنا ، لا نخف شيئاً ولا نجزع لشىء ، فإننا بعد قليل نغتنى ونصبح فضلاء وكاملين . (سان جير)

(٢) كأن الشيطان يتقاذف نفسنا كالكرة لكثرة ما يهزهزها ولكثرة ما يخرجها من تجربة ويدخلها فى أخرى . وإن فى حياة القديسين وفى التوراة ما يبين لنا أنه لا يتحرج عن أن يضرب جسدنا ويهاجم نفسنا .

(القديسة تريزيا)

مناجاة للحصول على

السلام والفرح

يا كلمة الله ، ضياء الآب وضيف نفسنا الحبيب ، يا يسوع الساكن فينا فى وحدة روحك القدوس[1] ، يا من تريد أن تملك علينا ، بقوة الروح القدس عينه ، هبنا أن نشعر بعفاعيل هذا الملك المبارك : ملك السلام والفرح .

سلامك وفرحك ، لا سلام وفرح سعداء هذا العالم الناجحين فى شئونهم كلها ، والحاصلين على كل ما تشتهيه نفوسهم ، من صحة ، وتنعم ، وغنى ، ونجاح ، بل هبنا سلامك وفرحك كما تهبهما أنت ، وكما كنت حاصلا عليهما :

سلام وفرح الطوبيات [2]

سلام وفرح أبناء الله

---

(١) إن يسوع يعمل فينا ، إذ يجرى فى نفسنا حياته الإلهية بقوة الروح القدس كما تجرى الجفنة ماءها فى الغصون ، والدماغ سياله فى الأعضاء .

(٢) طوبى للمساكين بالروح ... طوبى للمتواضعين ... طوبى للأنقياء القلوب فإنهم يعاينون الله ... طوبى لمحبى السلام فإنهم أبناء الله يدعون .

سلام وفرح القديسين
سلام وفرح أبطال الإنجيل
سلام وفرح أحباء الصليب
سلام وفرح الشهداء
سلام وفرح طلاب الأبدية
سلام وفرح المشتاقين إلى السماء . .

نعم ، السلام والفرح ، رغم ما نشعر به من المصاعب والضيقات ، فى هذه الحياة[1] ورغم ما نقاسى من مقاومة العدو والتجارب المختلفة كافة .

السلام والفرح حتى مع الدموع والاضطهاد وما بين المشاغل والأتعاب المتواصلة .

---

(١) فقد الصحة وانعدام الرفاهية والثروة ، وعدم الطمأنينة والراحة . فالحياة تذكرنا دائماً بهذا الليل الواجب قضاؤه فى نزل مستوحش ، كما تقول القديسة تريزيا .

السلام

مناجاة أولى

يا كلمة الله ، ضياء الآب ، وضيف نفسنا الحبيب ، يا يسوع ، ملك السلام ، أعطنا السلام .

هبنا تلك الراحة التامة للرأس والأعصاب ، وذاك الهدوء الكامل[1] فى الباطن والظاهر ، وتلك الثقة الوطيدة والصفاء الهنىء ، واللطافة العذبة ، الجاذبة القلوب ، وذلك التأنى المقدس ، والهوادة المفرحة . وهبنا ، عند الحاجة وأوقات الشدائد ، شيئاً من ذلك السكون العلوى غير المتزعزع ، الدال على نفس مطمئنة ، سعيدة ، ترى كل أمورها ناجحة فى الله ، وترى كل ما يحل بها حسناً، لأن كل شىء يؤول إلى خير من يحبون الله.

غلغلْ فى صدورنا ، بحق روحك القدوس ، واخلق فينا ، وانشر وحكم فى قلوبنا ، رغم الانفعالات المضادة :

١ ــ الشعور بأن لا شىء يضطرنا ، ويحرجنا ، ما دامت إرادة

(١) الهدوء الباطنى ، هدوء الروح ، والقلب ، والمخيلة ، سكون الأفكار والعواطف مما يجعل نفسنا كبحيرة هادئة فى رأس جبل يتراءى فى مائها الشجر والقمر والنجوم كأنها مرآة صافية .

الله لدينا خير ما يمكن أن نتمناه من الشواغل .

٢ – الشعور بأن لا شيء يقيّدنا ويأسرنا ، أو يربطنا ويجبرنا ، أو يقهرنا نظير العبيد ، والأجراء، والعمال المسخّرين . لا ، فإننا لا نتعاطى إلا مع الله ، ولا نخدم غير الله ، وإننا نخدمه بالحب . .. لا ، لا شيء بالقوة ، ولا بالإكراه ، ولا شيء بالخوف وغصب القلب .

لذلك لا غصب ، ولا إكراه ، بل راحة وهناء . كل شيء بالحب والحرية ، وكل شيء بالرضى والارتياح « حاضر ، حالا ، بطيبة خاطر »[١] .

٣ – الشعور بأن لا شيء يكلفنا فى حياتنا اليومية جهوداً غير عادية ، وحسبنا ما نبذل ، إذا كنا نفعل ما نستطيع ، طبقاً لإرادة الله فينا فقد نصنع أكثر مما ينبغى ، عندما نتصرف بحمية طبيعية .

٤ – الشعور بأن لا شيء يوجب قلقنا من سلوكنا مع الناس ، فى قضاء عملنا وتتميم واجبنا ، لثقتنا بك (ثقتنا بتأييدك وتدبيرك) ؛ وثقتنا بأنفسنا (أى باستعدادنا ونيتنا) ؛ ولثقتنا بالآخرين وبحسن استعدادهم ولا سيما بمن نقصدهم وبمن يرسلهم الرب إلينا .

والشعور بأنك تحسن إلى من نحبهم ولا نستطيع نحن أن نصل إليهم ونراهم ، وأنك توليهم كل ما نتمنى لهم ، وتحفظهم بالحرارة ، والثقة

---

(١) جواب القديس يوحنا بركمنس لمن كان يطلب منه خدمة .

والسلام ، وتعزيهم فى ضيقاتهم وتستجيب طلباتهم كما كنا نصنع نحن لو كنا قادرين .

٥ – الشعور بأمان تام فى ظل عنايتك الأبوية ، ما دامت تعلم كل شيء ، وتقدر على كل شيء وما دامت تحبنا .

الشعور بأنك أنت أيها الراعي الصالح تقودنا وأننا لا ينقصنا شيء فى ظل حمايتك [١] .

الشعور بأن لا شيء يوجب قلقنا من قبل المستقبل ، لأن المستقبل ليس لنا . والله الذى له وحده المستقبل ، هو يدبره ويساعدنا فيه ، على قدر احتياجنا ، وقدر ما يلزم لخيرنا الأعظم ، كما يفعل المحمم حين يرتب قوة انحدار الماء ويعدل حرارته .

الشعور بأن لا شيء ينقصنا ، مما نستطيع أن نشتهيه أو نحسبه ضروريا لنا . لأننا فى إرادة الله المقدسة واجدون كل ما يلزمنا ويوافقنا ، فلا ينقصنا معها شيء .

وهبنا ، لزيادة طمأنينتنا ودوامها ، هبنا أن نشعر بغنانا فى الله ، وأن ننظر إلى ما عندنا ، وما نملك من نعمته أكثر من نظرنا إلى ما يمكننا أن نشتهيه [٢] .

---

(١) الرب راعي فلا يعوزنى شيء (مزمور ٢٢) .

(٢) كن لنا فى الغربة عزاء ، وفى حر الشمس برودة ، وعند المطر والبرد ملجأ ، وفى التعب سنداً ، وفى الضيق عوناً ، وفى المزالق عضداً ، وفى الغرق ميناء خلاص .

هبنا أن ننظر إلى كل ما يجب علينا عمله من الأمور ، لا من الجانب العسير والجهة المعقدة المكروهة ، بل من الجانب الميسور ، والجهة الجذابة وما فيها من السهولة والتعزية .

ومتى كنا لا نريد حقاً إلا ما يريد الله ، وكما يريده ، وعلى قدر ما يريده ، فأى شيء لا يكون لنا ميسوراً ومفعولا ، أو لا يكون خفيفاً ومحبوباً ؟

أى شيء يستطيع أن يقلقنا ؟ . . .

أهى وصاياه تعالى ، أم رغباته ، وما هى بثقيلة .

(فعل إيمان) (١ يو ف ٥ : ٣) .

قد تكون نيراً وجبراً وانحصاراً ، ولكنّ النير مع طيب النعمة يصبح طيباً .

وقد تكون عبئاً ، غير أن طيب النعمة يجعل العبء خفيفاً .

إن نيرى طيب وحملى خفيف (متى ١١ : ٣٠) .

٦ — الشعور بأننا لا نتعلّق قلبيًّا بشيء إلا بإرادة الله المقدسة ، ولا نتمسك بشيء من الدنيا حتى بالحياة نفسها ، (الآن أطلق عبدك بسلام) . فكيف نتعلق بما هو دون الحياة : كالصحة والرفاهية وما إليهما من أشغال وأعمال ، وخدمة ، ووظيفة ، ومقام ، وعلاقات ، أو تتميم ما بدأنا به . . .

٧ – الشعور بأننا زاهدون الزهد الذى يريده القديس أغناطيوس[1]، ومستقلون استقلال القديس فرنسيس ديسال[2]، وأننا أحرار من كل تعلق ومن كل هوى شديد يفقدنا روح الزهد الشامل الواجب أن نحتفظ به، أحرار من كل مأرب، ومطمع، وإلزام يضرّ بحرية الروح، وأننا متنزهون خاصة عن كل ميل غير مرتب[3] كأننا على شفا الموت أو كأننا أموات.

٨ – إذاً الشعور بأن لا شيء يستطيع أن يؤذينا، ولا شيء يلزم أن يقلقنا، أو يهمنا، أو يخيفنا[4]، ولا شيء يغيظنا، ويحزننا، أو

(١) الزهد عند القديس أغناطيوس يقوم بألا نكره شيئاً أو أن نميل إلى شيء ضد إرادة الله. فلا نفضل الصحة على المرض، ولا الحياة على الموت، ولا الغنى على الفقر، ولا الاعتبار والنجاح على الاحتقار والإخفاق، ولا نتمسك بشيء إلا بمقدار ما يريد الله.

أن نريد إرادة حرة حازمة، رغم أى ميل أو كراهية أو أنانية، كل ما يريد الله وألا نريد شيئاً سواه.

ماذا لى فى السماء وأى شيء أردت على الأرض سواك (مز ٧٢ : ٢٥).

(٢) شهدت له القديسة جان دى شنطال، قالت: كان الطوباوى عظيم الشجاعة نبيلها، شهماً كريماً، لم يكن مستعبداً لخليقة، ولا لشيء أياً كان، بل كان فيما يخص مجد الله، فوق هذا كله. ولم يكن ليكترث للسمعة، ولا للرفاهة ولا لمراعاة العظماء بل كان يسخر من كل ذلك، ولا كان منشغلا بالموت أو بالحياة أو بالأقارب والأصدقاء؛ إنما كانت روحه تهيمن على كل ذلك.

(٣) لا نشتهِ شيئاً – فلا نأسف على شيء – مما لا يريده الله منا، مما يحرمه علينا، أو يحرمنا منه، أو لا يسهل لنا السبيل إلى عمله «حالا وبطيبة خاطر». حسبنا إرادة الله، ينبغى أن نستغنى بها، لأنها الخير الأسمى والضرورى الأوحد ولأن فيها كل ما يمكن أن نشتهيه.

(٤) ونحن نعلم أن الذين يحبون الله كل شيء يعاونهم للخير (رومانيين ف ٨ : ٢٨).

يجربنا ويستهوينا ، ولاشيء يضادنا ، لأننا ، متى كنا ، كل حين ، لا نريد إلا ما يريد الله ، فلاشيء يخالف هوانا ، بل كل شيء يكون طبق مرامنا ، هذا المرام الذى يجعل إرادة الله فوق كل شيء .

٩ — هبنا إذاً الشعور بأن لا شيء خليق بأن يسلبنا راحة الرأس والأعصاب[1] ، ولا ذلك الهدوء التام ، باطناً وظاهراً ، ولا تلك الثقة الكاملة ، والصفاء البهىّ ، والفرح الظاهر ، وتلك اللطافة العذبة الخلابة ، وذلك التأنى والهوادة . وهبنا ، فى أمسّ الحاجات ، شيئاً من ذلك السكون السماوى الذى ينمّ عن نفس هادئة سعيدة ، لأن كل أمورها ناجحة فى الله ، وكل شيء عندها حسن .

١٠ — وإذا الريح هبت والعاصفة عصفت ، فمر ، يا يسوع ، الريح والعاصفة فتسكنا وتهدأا ، ونعود نحن إلى مواصلة أشغالنا هادئين كأن لم يكن من شيء .

١١ — وإذا ما وافى الألم فإنك تمنحنا ، رغم تأثيراته المزعجة ، ألا نفقد السلام ، وأن نظل متحدين بك اتحاداً شديداً ، كما ظللت متحداً بأبيك وأنت على الصليب ، أنت يا كلّ قوة الشهداء .

(١) جهد المستطاع ، لأن المرض والتعب قد يعقدان الأمور ويسببان مصاعب لا تغلب .

المناجاة الثانية

إن ما اتخذناه من التدابير ، حتّى الآن، ما هو إلا لنضمن السلام مع الله ومع أنفسنا . فينبغي لنا أن نبحث عما يضمن لنا السلام مع القريب.

صلاة للحصول على الحب الكامل للقريب

١

يا كلمة الله ، ضياء الآب ، وضيف نفسنا الحبيب ، يا يسوع ، علّمنا بروحك القدوس أن نفهم ونذوق ، ودرّبنا على حب القريب ، كما أردته وأوصيت به ، فى مثل السامرى الكريم ، وفى كلامك عن المجازاة فى يوم الدين ، وفى خطابك بعد العشاء السرى — وكما أحببت أنت نفسك مدى حياتك .

وبقوة الروح القدس نفسه ، الخالق والمحيي ، غلغل بنا واخلق فينا ، وانشر وسلّط على قلوبنا موهبة التقوى ، حتّى نكون مثلك ، فننطرح على أقدام « قريبنا » كما علمتنا بمثالك فى العشاء السرى ، راغباً أن نقتدى بك .

حتى إذا قابلنا قريباً أياً كان ، طفلا أم شيخاً ، رجلا أم امرأة، فقيراً أم غنياً ، نحس أن له فى قلبنا أخلص الولاء وأصدق عواطف المحبة .

أى أكرم محبة ، عند الصفح والعطاء ، أو عند التعويض عن ضرر أو كدر ألحقناه به .

بل أصبر محبة عليه ، عند نسيانه إيانا ، وقلة اكتراثه لنا ، وخشونته علينا ، وسوء نيته نحونا .

وأحلم محبة ، فكراً وقولا ، فلا نتسامح أبداً بذمه أو بالنميمة عنه .

بل أرفق محبة فى معاملته ، وألطف محبة عند مقابلته ، وأوفر محبة تشجيعاً وتفريجاً له .

وأحن محبة مؤاساة له ، وأسرعها إسعافاً لكل جنس من المنكوبين : الفقراء ، والمرضى ، والأرامل ، والأيتام، والأسرى المتروكين ، والمسافرين المقطوعين ، فى البر والبحر ، والمائة والخمسين ألف محتضر ، كل يوم، والنفوس البائسة[١] ، والمعذبة فى المطهر .

وأسرع محبة إلى التضحية بالوقت والذوق ، وبما فينا من قوة ونشاط .

مع التناهى فى اللطف ، بلا توقع شىء من الربح والمنفعة .

---

(١) بؤس النفس هو الإظلام والبلبلة ، والميل إلى الأمور السافلة الأرضية ، والاضطرابات المختلفة والتجارب التى تدفع بالنفس إلى الحذر وتحرمها من الرجاء والحب وتتركها حزينة ، فاترة ، خاملة كأنها منفصلة عن الله خالقها وربها .
(رياضة القديس أغناطيوس . قانون تمييز الأرواح) .

٢

أليس واجباً علينا أن نحبّ القريب، كما أحببته : « أحبوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم » (يوحنا) . أفلم تحبنا رغم ذنوبنا ورغم قبحنا — حتى أنفقت كل ما بوسعك حتى النهاية — قد تمّ .

أما فضّلت القريب على نفسك ؟ فشئت أن يقدّم عليك بالإكرام (متى ٥ : ٢٣) .

أما يجب علينا أن نحبك أنت كما أحببتنا ؟

وإذا كنت تعد ما نصنعه إلى أدنى إنسان مصنوعاً إليك (متى ٤) أفما ينبغى لنا أن نبينّ ، فيما نصنع إليه، كل ما عندنا من الحب لك ؟ أوليس فى ذلك عزاء لنا أننا نستطيع وفاء اليسير مما لك علينا من الدين ، دين عرفان الجميل .

حبّ القريب ! أما إن تلك هى وصيتك ،وصية قلبك المفضلة — بل ملء الشريعة ، وميزة تلاميذك الصادقين ، وأفضل وسيلة إلى نيل الغفران ، مهما كثرت الزلات .

« وقبل كل شيء أحبوا بعضكم بعضاً محبة شديدة ، فإن المحبة تستر جمّاً من الخطايا » (١ بطر ، ٤ : ٨) .

حبّ القريب ! أما وعدت من يمارسونه بأفخر الجزاء، لا فى الأبدية

فحسب به فى هذا العالم نفسه .

« تعالوا يا مباركى أبى ، رثوا الملك المعدّ لكم . . . فإن كل ما فعلتم بإخوتى الصغار فبى فعلتموه » (متى ٢٥ : ٣٤) .

« طوبى لمن يراعى المسكين ، ينقذه الرب فى يوم السوء ، الرب يحفظه ، ويحييه ، ويسعده فى الأرض ، ولا يسلمه إلى نفوس أعدائه ، الرب يعضده على سرير الوجع ، ويمهّد مضجعه كله فى سقمه »(مز ٤٠)

أوليس حب القريب أولى الفضائل ! أما وضعه الرسل —وهم أولى من شرح نواياك — فوق كل شيء ؟[١] .

إن حب القريب لأمر جميل جداً ، وصالح جداً ، حتى إنه لحقيق بنا أن نتوسل إلى قريبنا ، لكى يرضى أن نخدمه « ونغسل قدميه » (يوحنا ١٥ : ١٢) ، كما أوصى ربنا القديس بطرس فى العشاء الأخير. وهو نفسه ، أما دعا جميع المعذبين أن يأتوا إليه لكى يعزيهم ويقويهم : « تعالوا إلىّ جميعاً أيها المتعبون والثقيلو الأحمال ، وأنا أريحكم » (متى ، ١٥ : ٢٨) .

* * *

يا مريم يا أمّ المحبة الجميلة ، يا ملكة السلام ، صلّى لأجلنا ، واستمدّى لنا المحبة الكاملة للقريب .

---

(١) البسوا كمختارى الله القديسين المحبوبين أحشاء الرحمة واللطف والتواضع والوداعة والأناة . وفوق جميع هذه البسوا المحبة التى هى رباط الكمال (كولسى ، ٣ : ١٢) .

شرط

لكن ، لا نقدر أن نثبت فى السلام والهدوء الباطنى والظاهر ، ونتمتع براحة الرأس والأعصاب اللازمة لحرّية الروح ، إلا إذا جعلنا إرادة الله فوق كل شىء (الاقتداء ك ، ٣ : ٢١) .

وإذا آمنا بالحب ، بحب الله لنا ، وعونه إيانا ، وأنه لا يأذن بأمر إلا لخيرنا الأعظم ، إذا استطعنا أن نؤمن ، نشفى من أوهامنا ومما يقلقنا ، ونقدر أن نعمل كل شىء ونحتمل كل شىء لفائدة نفسنا : « إذا استطعت أن تؤمن ، فكل شىء ممكن للمؤمن » (مرقس ، ٩ : ٢٢) .

فلنتعلم من قلب يسوع أن نكون ودعاء ومتواضعين ، فنجد السلام .

« لا شىء يصعب على الودعاء ولينى الجانب » (القديس ليون) .

هبنا أن نفهم ما جاء فى خطابك على الجبل (متى ٥) .

هبنا أن نعيش كما يعلمنا كتاب الاقتداء بالمسيح (كتاب ٣ ف ١٧ ، ١٨ وكتاب ١ ف ٢) .

وأن نحارب أعداء السلام حتى نبيدهم ، وأن ننظم المحبة فينا تنظيماً صحيحاً ، فنطلب الله فى كل شىء . فى صداقاتنا وكل علاقاتنا . . . ونظم أعمالنا اليومية ، ونحسن استخدام الزمان حتى نكون دائماً مستعدين

كالعذارى الحكيمات (متى ، ٢٥) .

هبنا ألا نفقد الاختلاء والاعتدال فى جميع الأمور ، ولا نستعجل فى شيء [١] .

وألا نُقدم على أمر فوق طاقتنا (قوى الجسم والروح والعقل)[٢] ، ولا ندع الشواغل تغرقنا ، مهما كثرت وتعدّدت [٣] لأنك لا تطالبنا إلا باستثمار ما أعطيتنا من الوزنات ، استثماراً يعادل قوانا وما لدينا من الوقت والقوة[٤] .

« كل إنسان حسب طاقته » (متى ، ٢٥ : ١٥) . ما كلف الله نفساً فوق طاقتها .

---

(١) مثل العذارى (متى ٢٥) .

(٢) يكفى كل يوم شره . فلا نقم فى اليوم بعمل يومين ، ولا فى الساعة بعمل ساعتين .

(٣) لا تتسلط عليك الأمور ، بل تسلط أنت عليها ، وكن رب أعمالك ومديرها ، لا عبدها وأسيرها (الاقتداء ك ٣ : ٣٨) ، و (يشوع بن سيراخ ف ، ٣ : ٢٢) .

(٤) لا يطلب من الفلاح أن يحرث غير ما تسلم من الأرض ، ولا عليه أن يستغل منها أكثر ما تستطيعه وسائله من عمال وآلات وغيرها .

بواعث واعتبارات

من نصائح القديس فرنسيس ديسال

« من تكرّس لله ، فليطلب الله ، فلن يكون الله معه فى المحنة أقل منه فى وقت النعمة . وهكذا يبقى فى وسط الشدائد سابحاً فى جوّ السلام ».

«عيشى فى الجو الروحانى ، واسكنى فى ظل السلام وثقى أن الله يعضدك».

« لا تنسى أن تتقى كل أعمالك : رقادك ونهوضك ، جلوسك ، وأكلك، وشربك وكل أمورك . . تذكرى أن عليك أن تقومى بأعمالك ، بكل تؤدة وإتقان . إنى أنهاك عن الاستعجال فى أعمالك ، فهو شرّ النقائص ومنبعها » (من رسالة إلى أنجيل أرنو) .

« يجب أن نحيا فى سلام ، أينما كنا وكيفما كنا » .

« أعدّ نفسك ، منذ الصباح للهدوء ، وابذل جهدك أن تذكّرها به غالباً ، وتردّها إليه طول النهار » .

« اجتهد أن تجعل نفسك فى جو من العذوبة ، وقل لها : مهلا يا نفسى ، فلنمش على مهل ، ولنكن على حذر » .

« إن الله يمتعنا بالسلام ، متى بلغنا من التواضع إلى أن نحارب ، ونحن هادئون » .

« إنا لن نصل إلى الوداعة الكاملة والمحبة التامة ، ما لم نمارسها ، بين الكراهية ، والنفور ؛ لأن السلام الحقيقى لا يكون بترك القتال ، بل بالنصر ، السلام الحقيقى لا يكون بعدم المصاعب، بل بالتغلب عليها .

« ومهما يكن من الحوادث ، فإياك أن تفقد السلام الباطنى ؛ فما قيمة كل ما فى الدنيا ، إزاء سلام القلب ؟ »

من أقوال القديس أغناطيوس : « إذا بلغنى أن الرهبانية قد ألغيت ، فحسبي أن أختلى ربع ساعة ، أمام القربان المقدس ، فأستعيد السلام ».

مهما طلبنا غير السلام ، فلن يساوى السلام نفسه .

إذا كنا لا نطلب إلا الله ، ونحن واجدوه كل حين – بإرادته وحضوره – فكيف لا نكون دائماً فى سلام ؟ ... لو كانت جميع رغباتنا ، وسعادتنا ، ولذتنا فى أن نريد ونعمل، لا هذا الأمر ، ولا ذاك ، بل ما يريد الله منا فى الساعة الحاضرة ، لكنا نعمل دائماً كل ما نريد .

لا شىء مما نعمله يزول بل يبقى جميعه .

يقول الروح القدس : إنهم منذ الآن يستريحون من أتعابهم ، لأن أعمالهم تابعة لهم (الرؤيا ١٤ : ١٣) .

فليضطرب ، ويتعجل ، ويهتم أولئك الذين أعمالهم لا تبقى ، لأنها معدة للزوال . وليستعجل أولئك الذين لا يقدرون أن يرتجوا، أن تتبعهم أعمالهم وأرباحهم ، أما أولئك ، فليستريحوا وليهنئوا ، لأن كل ما عملوا

باق ، لا يزول ، وكله محفوظ فى خزانة الملك .

لا يقلقنَّك أمر . فمن يستطيع أن يعكرّ سلام قلب يحبك ، يارب ؟ . . .

إنه يطلب فى كل شىء مشيئتك السامية ، لا مشيئة نفسه . وهل من سعادة على الأرض أو فى السماء نفسها تساوى سلام قلب يحبك ؟ (تريزيا) طوبى لمحبّى السلام فإنهم أبناء الله يدعون (متّى ٥ : ٩) الكمال فى السلام (أغوسطينوس) .

صلاة تتلى أيام الحروب

اللهم ، أنت ينبوع الرغبات المقدسة ، والنيات الصالحة والأعمال العادلة ، امنح عبيدك ذلك السلام الذى لا يقدر العالم على منحه ، حتّى تتمسك قلوبنا فى وصاياك ، وإذ ننجو من مخاوف الأعداء ، نحيا أياماً هنيئة فى ظل حمايتك . آمين .

الفرح

١

مناجاة أولى

يا كلمة الله ، ضياء الآب وضيف نفسنا الحبيب ، يا يسوع مشتهى قلوبنا ، نسألك بحق أفراحك أن تمنحنا ، مع السلام ، الفرح ، الفرح الأبدى ، فرحاً دائماً[1] ، فرحك أنت ؛ ولىملأ قلوبنا ، فلا ينزعه منها نازع أبداً .

بحق روحك الخالق والمحيي ، غلغل فينا واخلق وسلّط على قلوبنا — رغم ما يعترينا من التأثرات المضادة — شعوراً حيًّا بحسن حالتنا الأدبية ، وما نحن فيه من السعة والانبساط ، والحرية ، والاستقلال العام ، والاكتفاء المقدس ، والثقة والنشاط . وبالجملة هبنا أن نشعر شعوراً كاملا بسعادتنا فى الله ، حتى تمتلىء نفوسنا كل حين بهجة . كما يطلب الرب حسب قول المزمور (٣٩ : ١٧): ليسرّ بك جميع الذين يلتمسونك ويفرحوا ،

(١) « جميع أيام البائس رديئة ، وطيب القلب وليمة دائمة » (أمثال ١٥ : ١٥) .. « سأراكم فتفرح قلوبكم ولا ينزع أحد فرحكم منكم » (يوحنا ١٦ : ٢٢) .



وليقل فى كل حين محبو خلاصك: « تعظم نفسى الرب » .

وحتى نطيع وصية القديس بولس : « افرحوا دائماً بالرب » (فيلبى ٤ : ٤) ، وقوله فى رسالته إلى الرومانيين (ف ٧ : ٣٨) [١]

ونلبى رغبة الكنيسة : لنكن دائماً متعزين .

ومشورة القديس أغناطيوس : لنتعلم أن نبتسم دائماً لكل شىء .

١ — لنبتسم لكل شىء ، دلالة على الشكر لما نلنا من النعم :

نعمة حب الله الأبدى « إنى أحببتك حباً أبدياً » [٢] ،

نعمة تجسد ابن الله « فى البدء كان الكلمة » (يوحنا ١) ،

نعمة اختيارنا وخلقنا ، وحفظنا ، وفدائنا وتبريرنا ،

نعمة حضوره فينا ، إذ يريد أن نتمتع به ونفرح معه ،

نعمة حياته فينا ، إذ يريد أن يبلغ إلى أن يعمل كل شىء بنا ، بالروح القدس (الفعل الباطن) فنصير أشباهاً له هو نفسه ، حتى إذا شئنا أن نعمل عملا ، كان هو العامل بنا ، وإذا لزم أن نتعذب ، كان هو المعذب فينا ، أو أن نتكلم كان هو المتكلم فينا .

وهكذا يتم كل شىء بناسوته المقدس فى النفوس المنقادة لإلهامات

---

(١) إنى لواثق أنه لا موت ولا حياة ولا ملائكة ولا رياسات ولا قوات ولا أشياء حاضرة ولا مستقبلة ، ولا علو ولا عمق ولا خلق آخر يقدر أن يفصلنا عن محبة الله التى هى فى المسيح يسوع ربنا .

(٢) إنى أحببتك حباً أبدياً فلذلك اجتذبتك برحمة (أرميا ٣١ : ٣) .

النعمة ، بحيث يستطيع قديس كبولس أن يقول : « أنا حىّ ، لا أنا ، بل المسيح حى فىّ » (غلاطية فى ٢ : ٢٠) .

ونعم عنايته ، بإنقاذنا من المصائب التى تحل بنا (الفعل الخارجى) (ما يجرى فى بركة لورد . . . إزاء ما فى العالم من الشقاء) .

ونعمة دعوتنا إلى حياة الكمال ، والحياة الباطنية ،

ونعمة دعوتنا إلى تقدمة القداس ، وتتميم سائر الخدم ،

ونعمة المناولة اليومية ،

وتلك النعم الممتازة التى تؤهلنا لأن نسعف النفوس .

إنه لحسن أن يكون الإنسان طيباً وأن ينشر حوله السلام والفرح ،

ونعمة ما نقبل وما نولى من المعروف . . .

ولما كانت هذه النعم غير محصورة ولا منقطعة لزم أن يكون الابتسام مثل الشكر متتابعاً (فى كل زمان ومكان) وصريحاً وجازماً ، ليقطع دابر كل غم وكل أثر للهمّ .

٢ — لنبتسمْ لكل شىء ، دلالة على الإيمان وبرهاناً على أننا نؤمن بالحب حب الله الخاص لنا : « ونحن قد عرفنا وآمنا بالمحبة التى عند الله لنا ، الله محبة . . . » (١ يو ، ٤ : ١٦) .

« أحبنى وبذل نفسه عنى » (غلاطية ٢ : ٢٠) .

أما إن هذا اليقين بأن الله يحبنا حبًّا خاصًّا ، منذ الأزل وإلى الأبد ،

فيه ما يجعلنا كل حين فرحين ؟ . . .

٣ — لنبتسمْ لكل شيء دلالة على الثقة . أما من الماضى ، فليس فقط لثقتنا بأن كل ما جنينا من الذنوب قد غُفر وامحى وباد ، لما قدّمنا من الندم؛ ولكن لأن إثمنا سيكون مفيداً لنفسنا (Felixculpa) حسن لى أنك أذللتنى .

وأما الثقة بالحاضر ، فلأن كل شيء يؤول إلى صلاح من يحبون الله ويحبهم ، ولأننا نحن أحباء الله وأبناؤه الأعزاء .

ومن قبل المستقبل، فلثقتنا بأننا لن ينقصنا شيء مما يلزم لتقديسنا ولتتميم ما يريد الله منا ، ولثقتنا بأننا نمضى إلى السماء ، ونحظى فيها بمدح الله وبقربه ، على قدر ما نكون قد مارسنا فى الحياة من الصبر ، والمحبة ، والغيرة ، وعلى قدر ما نكون قد أحببناه تعالى وحببناه إلى النفوس ، وعلى قدر ما نكون قد عانينا فى سبيله ، وحباً لمشيئته من الأتعاب المضنكة والتضحيات المضنية ، وعلى قدر ما نكون قد تألمنا وجاهدنا لأجله فى هذا العالم ، مثل القديسين . « فرحت بالقائلين لى إلى بيت الرب ننطلق » (مز ١٢١) .

٤ — لنبتسمْ لكل شيء ، دليلا على صفاء النية ، ولنحاول ما استطعنا أن نكون متفائلين .

٥ — لنبتسمْ لكل شيء ، دلالة على حبنا لله ، فإنه يوصينا بأن نحبه (حب الخضوع ، كطفل يخضع بطيبة خاطر ، وحب التساوى كعروس

هائمة بعروسها) . نقول : آمين ، مستسلمين[١].

إن الله سعيد جداً سعادة لا تزول ، ولا تتغير ولا تنتهى فلنحبه حبّ الفرحين بسعادته .

وإن الله جميل جداً ، وعظيم جداً ، وكامل جداً ، وقدوس جداً ، وطيب جداً ، وهو مشتهى قلوبنا وفخر حياتنا [٢] ، وهو الحب الكامل الكافى الكفاية كلها :

فلنحبه حبّ العبادة . سبحان الله ، من مثل الله !

٦ — لنبتسم لكل شى ، غيرة وإكراماً[٣] وتعزية لله ، لكى نقتدى به ونعوّضه ، ونرضيه .

لقد طالما وقف المسيحيون نفوسهم وديارهم على الله الكلى الصلاح ، فلم لا نقف نحن نفوسنا على إله السلام وكل تعزية ، الإله الكلى السعادة ، الذى لا يعترى فرحه كدر .

---

(١) متى حزنا فإنما نحزن لأننا نريد ما لا يريد الله أو لأننا لا نريد ما يريده أو أننا فيما نريد ما يريده إنما نريد شيئاً آخر ، أو نريده خلاف ما يريده .

تلك دلالة على نقص فى الإخلاص ولا إخلاص كامل ما دام ثم — ولو فى باطن الضمير — ميل أو تعلق أو رضى بما لا يرضى الله .

(٢) « افرحوا بالرب وابتهجوا ، أيها الصديقون ورنموا يا جميع مستقيمى القلوب جميعاً » (مز ٣١ : ١١) .

(٣) يجب أن نكرم الله كما كرمه أيوب ، فدحه الرب وأثنى على فضيلته ، وكما يكرم الأبناء المهذبون والديهم ومعلميهم بحفظهم لما قبلوا منهم من المبادئ ، وبانقيادهم لهم ، متشبهين بهم ، ومتازين كل حين فى خدمة الوطن وتتميم واجباتهم جميعها .

ليكن فى سلوكنا ما يذكّر الخلق بشىء من صفاته تعالى، ولو كضوء بعيد : ظاهر دائم الهدوء ، فرح ، لطيف ، بشوش. . . إن من يريدون التعبد للعذراء الطاهرة ، فإنهم يكتسون بألوانها :

الابتسام الدائم يجعلنا وقفاً حيّاً على إله السلام وكل تعزية (رومانيين ١٣ ، كورنتس ١) ، ويجعلنا أشبه بمفكّرات حية تذكّر الناس بصفاته تعالى الإلهية (وهذا حب التشبيه والتمثيل) .

إن أبانا الذى فى السموات يغمر البشر بإحسانه : الخلق والحفظ ، والفداء ، والعناية ، ولا يسمح بمحنة تحل بهم إلا لما ينجم عنها من الخير العظيم . ومن أدركوا مقاصده وارتضوا بإرادته ، فإنهم يفيدون من المحن أجل الفوائد .

« كم نعمة ، لا تستقل بشكرها لله فى طى المكاره كامنه »

أما أعداؤه فإنهم يعدّونه ظالماً ، قاسياً ، بلا شفقة ، وبلا رحمة ، ويتجاسرون فيتهمونه (بأنه ظالم).فعلينا أن نحتج على هذا البهتان الكفرى، بما نبديه من الرضى والسرور ، برهاناً على أننا سعداء فى خدمته، وأننا فيها على أحسن ما يكون .

حسن لنا أن نكون ههنا (متى ، ١٧ : ٤) .

إن الله أبانا الكلى الصلاح يحق له أن يحزن مما يردده معذبو هذا العالم من التذمر والشكاوى .

فعلينا نحن أن نعزيه ونعوضه من ذلك بفرحنا وابتسامنا الدائم ، وعلينا أن نحتج على ما شاع فى عصرنا من التشاؤم ، وعلى ما يبدو على الوجوه من العبوس ، والسأم ، والغضب ، كأن الناس أطفال يتامى ، لا عائل لهم .

٧ — لنبتسم لكل شيء ، غيرة على منفعة الآخرين ، حتى نجذب الناس إلى خدمة الله ، وهم راضون مرتاحون ، بمثل الدوافع والعواطف التى تدفعنا نحن . ولا بدّ لذلك من استمالة قلوبهم ، وإلقاء الثقة فى روعهم ، لينقادوا إليه راغبين .

الناس يمضون إلى ذوى الآمال ، إلى من يبشرون بالخير والسعادة ، وهم يحبون المتفائلين ذوى الطباع المؤنسة والعقول المتزنة ، من أهل البشر والبشاشة ، ويميلون إلى الطيب الروح والمخلص القلب .

فإذا شئنا أن نصنع جميلا ونأسر القلوب ، يجب أن نكون فرحين مبتسمين لكل شيء ، دليلا على لطف مزاجنا ، وكرم طبعنا وحسن ذوقنا ، ودليلا على اللطف ، والصلاح وطيب الروح .

٨ — لنبتسمْ لكل شيء ، رغبة فى الفوز والنجاح . سواء أكنا نعمل لله ، أم لنفوسنا ، أم للقريب ، فلا شيء ينجح نجاحاً صحيحاً إلا ما يعمل بفرح .

٩ — لنبتسمْ لما تقدم من الأسباب (لمعرفة الجميل ، وللإيمان ،

والرجاء ، والمحبة ، والغيرة فى أقصى حدودها) ؛ ولنبتسمْ أيضاً ، ما استطعنا :

١ — للمحنة ، فإنها بذاتها تعبير عن مشيئة الله ، وليست دون عطاياه الأخرى قيمة ؛

٢ — ولنبتسمْ ما استطعنا ، وبخاصّة ، للمحنة ، لما ينتج عنها من المنفعة[1] .

---

(١) هذا استعداد فى نفسنا فوق ضعفنا . فكم مرة رغبنا بل أردنا أن نفرح ونظل هادئين ، واثقين ، باشين ، فلم نقدر ! إن إدراك ما فى هذه الأحوال العاطفية المقدسة المطابقة للإيمان والعقل من الجمال والعظمة هى غير السمو إليها والبقاء فيها . غير أن النعمة وحدها تقدر أن تجترح هذه الأعجوبة .

مناجاة ثانية

السلام والفرح فى المحنة

يا كلمة الله ، ضياء الآب ، وضيف نفسنا الحبيب ، يا يسوع ، نسألك ، بحق روحك القدوس الخالق والمحيي ، أن تفيض فى نفوسنا ، وتخلق فينا ، وتنشر وتنمى هذه الرغبات التى هى فوق طاقتنا ، ومستطاع ضعفنا — أعنى السلام والفرح ، حتى فى أشد المحن إيلاماً للروح ، حتى فى العذاب ، أفض ذلك علينا ، كما أفضته على قلبك الأقدس ، وعلى رسلك ، وعلى النساء القديسات ، بعد قيامتك المجيدة ، وبعد العنصرة « فمضوا فرحين »[1] .

اجعل يا يسوع ، ما يقدر أن يزعجنا أو يغيظنا أو يغضبنا ، أو يحزنا أو يؤيسنا ، عاجزاً عن أن يغيظنا ، أو يحزنا ، أو أن يؤيسنا ويخمد نشاطنا .

وليكن كل ألم ، وحرمان ، وجهد ، وتعب ، وكل عائق ، ما أمكن الأمر ، سبباً لتجديد نشاطنا وشكرنا ، ولا تكن عاقبته إلا لتقريبنا

(١) « مضوا فرحين » لا يعنى ذلك أن العذاب كف أن يكون عذاباً وصار شيئاً مستطاباً ، ولكنهم بنعمة عجيبة كانوا يحبون العذاب ويفرحون به .

من الله ، وحملنا على الابتسام من جديد ، وبطيبة خاطر [1] وإن لم يكن ذلك فى وقت المحنة ، فعلى الأقل بعد عبورها .

وحينئذ ، لن نشكّ أن ملكوتك آت وأنه فينا على الأرض ، كما هو فى السماء .

لأن الفرح فى الألم أوضح دليل على حب الصليب

شرط

ولكن لن نستطيع البقاء فى الفرح ، إلا إذا جعلت قلوبنا ، يايسوع الوديع والمتواضع القلب ، مثل قلبك ، متواضعة ، ومطيعة ، فإن شرط الفرح الضرورى إنما هو السلام والثبات فى النعمة : « أحببت البرّ وأبغضت الإثم ، لذلك مسحك الرب بدهن الفرح » .

شرط الفرح إنما هو نقاوة الحياة ، وموت الروح عن كل ادّعاء وغيظ وأنانية ، وإلا فلا سلام ، ولا برارة ، ولا ثبات فى النعمة ، بدون تواضع وطاعة.

علّمنا أن نحارب أعداء الفرح ونبيدهم .

ومتى أتممنا هذا الشرط ، واتخذنا هذه الاحتياطات ، فلنتقدم عازمين ولنحثّ نفوسنا على الفرح حتى فى الألم .

(١) تلك بطولة الفرح — ولم لا يكون للفرح بطولة كما للصبر ، والبذل والتواضع ؟ هذا ما يشير به كتاب الاقتداء بالمسيح (كتاب ٣ ف ٣٠ : ٦) .

بواعث واعتبارات

نصائح للقديس فرنسيس ديسال

« هاك الكلمة العظمى : ابحث عما يريد الله منك ، ومتى وجدته ، فأقدم عليه فرحاً أو غير هياب[1] .

« لا تظن أبداً أنك وصلت إلى ما يجب أن تقدمه لله ، من طهارة القلب ، إلا إذا أخضعت إرادتك ، برضى وسرور ، حتى فى المكاره ، لإرادة الله المقدسة » .

« اللهم ، شجاعة ! فإن الأنوار والأفراح ليست فى طاقتنا ، ولاشيء من التعزية إلا ما رسخ فى إرادتنا .

« لا تدع الكآبة تستولى على نفسك وتحيا فى مرارة الروح والوسواس ، لأن الذى أحب نفسك ومات ليحييها هو صالح ، ووديع ومحبوب جداً » .

« لا تستسلم ، أبداً إلى الغم ، فالغم عدو العبادة ، فمم يجب أن تغتم نفس تخدم من سوف يكون فرحها إلى الأبد » .

(١) الفرح الحسى ، قلما تشعر به أشد النفوس عبادة ، ولذلك لا يبقى لها حينئذ إلا فرح الإرادة الذى يتكلم عنه القديس فرنسيس . وعليه فلا نستسلم (ا) للحزن الباطن ولا الظاهر ! (ب) ولنتصرف كأن كل شيء حسن وآئل إلى الفرح . وهذا يتم بقوة الإيمان والرجاء والمحبة وبقوة الصبر وشدة العزيمة .

« لا نرضَ لأنفسنا أن تضطرب أو أن تقلق لأمر أيًّا كان » .

« إنك تستطيع أن تميز ما ينبغى أن تحتفظ به أو أن تبعده من الأفكار ، بما تجده فيها من الثقة أو عدمها برحمة الله . فإذا كانت تدعوك دائماً إلى زيادة ثقتك به ، وجب أن تقبلها قبول رسل وافدة من عنده تعالى ، فتطيل مناجاتها والتمتع بها ، وإذا كانت تثير حذرك ، فعليك أن تبعدها كنفثات من الشيطان » (كتاب سلام النفس) .

نصائح للقديس يوحنا الصليبي

« لا تغتم سريعاً لما يأتى به الدهر من الكروب ، فإنك لا تدرى ما تجلب معها من الخير ، وما تعد للمختارين ، بأحكام الله السرية ، من الفرح الأبدى » .

« علينا عند الحوادث ، مهما شقت ، أن نفرح لا أن نحزن » .

« لا ، ليست مشيئة الله أن تضطرب النفس وتحزن من أى حادث ، فى هذه الدنيا . فهى إن حزنت واضطربت ، وسط الاضطرابات ، فما ذلك إلا لنقص فى فضيلتها ؛ لأن النفس الكاملة تفرح بما يحزن النفس الناقصة » .

* * *

أما نلاحظ فى كتاب الصلاة أن الفواتح جميعها ، حتى فاتحة

الموتى ، ومقدمات القداس جميعها ، ومقدمة قداس الموتى عينها ، تدعو إلى الفرح والشكر ! الابتسام حتى فى الشدة ، لأن أفضل ما نستخدم به أفضل الأشياء هو أن نضحى به على مذبح ميشئة الله .

إن حب الله يتغذى ، وينمو ، ويعظم بكل ما تفقده الأنانية من حب التمتع الأدبى والمادى .

وكل عمل مهما كان ، إذا تم بسلام وهدوء ، بل بفرح ولذة ، فإنه يفيد حتى الصحة نفسها ، ويريح الروح وينعشها .

نعم ، إن جميع الأشياء التى أعدت لتجديد قوانا (من أوقات راحة ، وغذاء وتنزه) ليست بذاتها أنفع الأشياء لنا ، بل هى كيفية سلوكنا الهادئ السعيد ، حين تعاطيها ، واستعدادنا الباطن لقبولها بسرور واطمئنان .

فيجب علينا ، حباً لله ، وحباً لمشيئته الحالية ، أن نسر ، ونفرح ونلذ بكل ما نصنع : « افرحوا وابتهجوا بالرب » (مز ، ٣٦ : ٤) ، فنحقق بذلك رغبة القديس بولس : « إذ تنمو فى كل شىء » (أفسس ، ٤ : ١٥) . . .

« اضحكوا ، اضحكوا » هذه كانت كلمات دوق نامور لأولاده ، حين كان يراهم على شفا القلق واليأس ، فى موقف خطر ، أو مجال صعب من تمارين الرياضة والفروسية .

فالضحك خير علاج جسدى وأدبى ، واقياً ومقوياً .

وأشدّ ما نحتاج إليه فى كثير من الأحوال إنما هو أن نضحك أو أن نغنّى .

وإذا رمنا أن نتصرف بحسب الروح الفائق الطبيعة ، كل حين ، وبدون افتكار ، فعلينا أن نبتسم لكل شىء .

لنضحك ونغنّ لكى نقنع نفسنا بتفاهة المصائب الصغيرة ، والحوادث ، والانزعاجات التى قد تحملنا على الاغتمام ؛

ولكى نحرّك فينا ، سريعاً ، قوة المقاومة ضدّ حركات الطبيعة الأولى ، أو حركات الأنانية وتجارب العدو المثيرة ؛

ولكى نوقف غارة الانفعال المؤيس ، والجزع والسآمة ، أو تمنع تقدّمه واستيلاءه علينا ، إن كان قد تسلّل إلى روحنا .

لنضحك ونغنّ ، لكى نلتزم أن نتصرف كأننا فرحون إذ ينبغى لنا أن نكون فرحين ، ولأننا نريد أن نكون فرحين ، ولأنه لا داعى إلى أن نكون غير مسرورين .

ولا شك أن لا شىء مهم من جهة الإيمان سوى ما يخص الأمور الفائقة الطبيعة ، لمجد الله وخلاص النفس ، وما عداه فتافه وباطل .

أمر واحد ضرورى : أن يكون الله ممجداً . وهو يتمجد ، دائماً فى كل شىء ، كيفما كان ، فإن لم يتمجد بطيبته ، تمجد بعدله : فلنهتف كل حين قائلين : هللويا !

أليس الله كلّى السعادة . كلّى القداسة والجمال ؟ أليس ناسوت

المسيح فى ملء المجد والسعادة الذى أهّلته له آلامه ؟ فلماذا أنت حزينة يا نفس ؟

الرب قد قام ! وهذا أساس فرحنا الحقيقى « فمهما بلغ منى الكمد ، فإنى حين أنطرح أمام الهيكل ، وأقول للرب يسوع : رب إنك كلىّ السعادة ، لا ينقصك شىء ، فحينئذ لن أتمالك أن أقول : وأنا أيضاً سعيد » (الأب دى فوكو) .

ونحن من حيث الإيمان ، لا يهمنا إلا أمر واحد ، وهو أن نضمن حياتنا ، حياتنا الأبدية (نضمن ما يحفظها ، ويزينها ، ويزيدها ، ويقويها ، ويغنيها ، ويكللها) .

وليس للعمر غاية إلا أن يساعدنا على اكتساب هذه الحياة الأبدية ، فى حين أن كل شىء يساعدنا على اكتسابها :

فلنهتف إذاً كل حين ، قائلين : هللويا !

وكل لحظة نفقد فيها السلام ، ويحتجب عنا الابتسام وينطفىء نور الفرح ، إنما كم هى لحظة ضائعة ، لا أسدت مجداً لله ولا نفعاً لنفسنا .

لأن السلام ، إذا غاب ، والابتسام إذا احتجب ، ونور الفرح إذا انطفأ ، دلّ ذلك على أن الإيمان والرجاء والمحبة فى هبوط وفى كسوف .

ولو كنا لا نطلب غير الله لضمنا رأس مالنا واسترحنا إلى ربح قرضنا : « إنى عارف بمن آمنت » ، فأعمالنا وتأليفنا مكتوبة فى بسجل الشرف من سفر الحياة .

ونحن إما معذبون أو غير معذبين . فإذا كنا بغير عذاب ، فلندع الأوتار تؤدى ما تشاء من أنغام الفرح ، وإن كنا معذبين ، فلنرفع الخانة كما يفعل الموسيقى حينما يريد أن يغطى ما يسمع من الضوضاء .

رفع الخانة يعنى اللجوء إلى الايمان وإلى العزم وفرح الإرادة ، فإن فى هذا الجهد أجراً عظيماً وفيه مسرّة لله . فنقول إذ ذاك ، أو نرتل بأعلى صوت ممكن : « تعظم نفسى الرب » ، و « إياك اللهم نمدح » أو بعض آيات من المزامير ، أو بعض الأناشيد الطقسية ، أو النصوص الكتابية المشجعة مثل :

« بك يا رب اعتصمت ، فلا أخزى إلى الأبد » .

« صالحٌ هو الاعتراف للرب ، والإشادة باسمك أيها العلى . . . حياتى هى المسيح ، وإن مت فذلك ربح لى . . . متى كنت ضعيفاً فحينئذ أكون قوياً . . . »

« إنى أفتخر بأمراضى ، حتى تسكن قوّة المسيح فىّ » .

« نسجد لك أيها المسيح ونباركك ، لأنك بصليبك المقدس فديت العالم » .

« يا امرأة لماذا تبكين؟... »، «لماذا تكتئبين يا نفسى وتقلقين فى . ارتجى الله ، فإنى سأعود أعترف له ، وهو خلاص وجهى وإلهى» (مز ٤٢) .

« الذين يتكلون على الرب هم كجبل صهيون غير المتزعزع الثابت

إلى الأبد » (مز ١٢٤) .

« أما الراجون للرب ، فيتجددون قوة ، يرتقون بأجنحة كالنسور ، يعدون ولا يعيون ، يسيرون ولا يتعبون » (أشعيا ، ٤٠ : ٣١) .

« أما أنا فأتهلل بالرب وأبتهج بإله خلاصى . الرب الإله قوتى ، وهو يجعل قدمىّ كالأيائل ، ويمشينى على مشارفى »(حبقوق ٣ : ١٨) .

فدخل الملاك ، وسلّم على طوبيا وقال : ليكن لك فرح دائم (طوبيا ، ٥ : ١١) .

إذا كنا لا نلتمس غير الله ، ومشيئته وحضوره ، فكيف نكتئب ؟ ولا نكون دائماً فرحين ، ونحن معه كل حين؟ . . .

« لتبتهج قلوب ملتمسى الرب » (أخبار الأيام الأول ١٦ : ١٠) .

إن الله سعيد بذاته ، ويسرّه أن نخدمه فيما نكون عليه من مختلف الأحوال ، مرضية كانت أم غير مرضية . . . فماذا ينقصنا ؟

ما أجمل حياة يخيم عليها السلام والفرح ، وما أقدسها ! تلك حياة ينعشها الحب والرزانة ، وتدبرها الفطنة ، وينظمها ويحيها جو سماوى ، وليس لإبليس الماكر سلطان عليها .

ليس لمؤمن فى حال النعمة إلا موقف واحد ، وليس له إلا مسلك واحد : أن يكون فى سلام وهدوء باطن وظاهر ؛ ولا يليق بوجهه إلا مظهر واحد : مظهر البشاشة . لماذا نلجأ فى كل وقت إلى السلام والفرح؟ — لأن الرب قال : « يكفى كل يوم همّه » .

نعم ، كل يوم ينتج ما يجب أن ينتجه من الأجر ، ويؤدى كل ما ينتظر الله فيه من العزاء والفخر والمجد ، ونحن لا بدّ لنا من أن نؤدى فيه مقداراً من الجهد والصبر ، ونحتمل كل ما يرافقهما فيه من الكفر بالذات ؛ وما يحقق كل ذلك غير السلام والفرح : أى الجهد الصحيح والصبر الطويل . ولا بدّ لنا ، كل يوم ، من اللجوء إلى السلام والفرح .

الشريعة المسيحية الكبرى هي المحبة ؛ محبة الله ومحبة القريب . وأوضح دليل على المحبة الصحيحة هو الفرح . وإذ كان يهمنا ، وحدنا ، أن نكون راضين بمحبتنا ، فعلينا أن نكون دائماً فرحين على الأرض كما فى السماء . (نوع الفرح مختلف وأما المبدأ فواحد) .

ولا يحق لمسيحى جدير بهذا الاسم أن يكون كئيباً بل أن يكون فرحاً (القديس أغناطيوس) .

إن الله يحب المعطى المتهلل (٢ كورنتس ، ٩ : ٨) ، يجب أن نعطيه ما نعطيه ، ونحن فرحون ، لأن هذا الفرح يمجده ويسره . فإذا شئنا أن نستميله فلنظل دائماً فرحين فى خدمته .

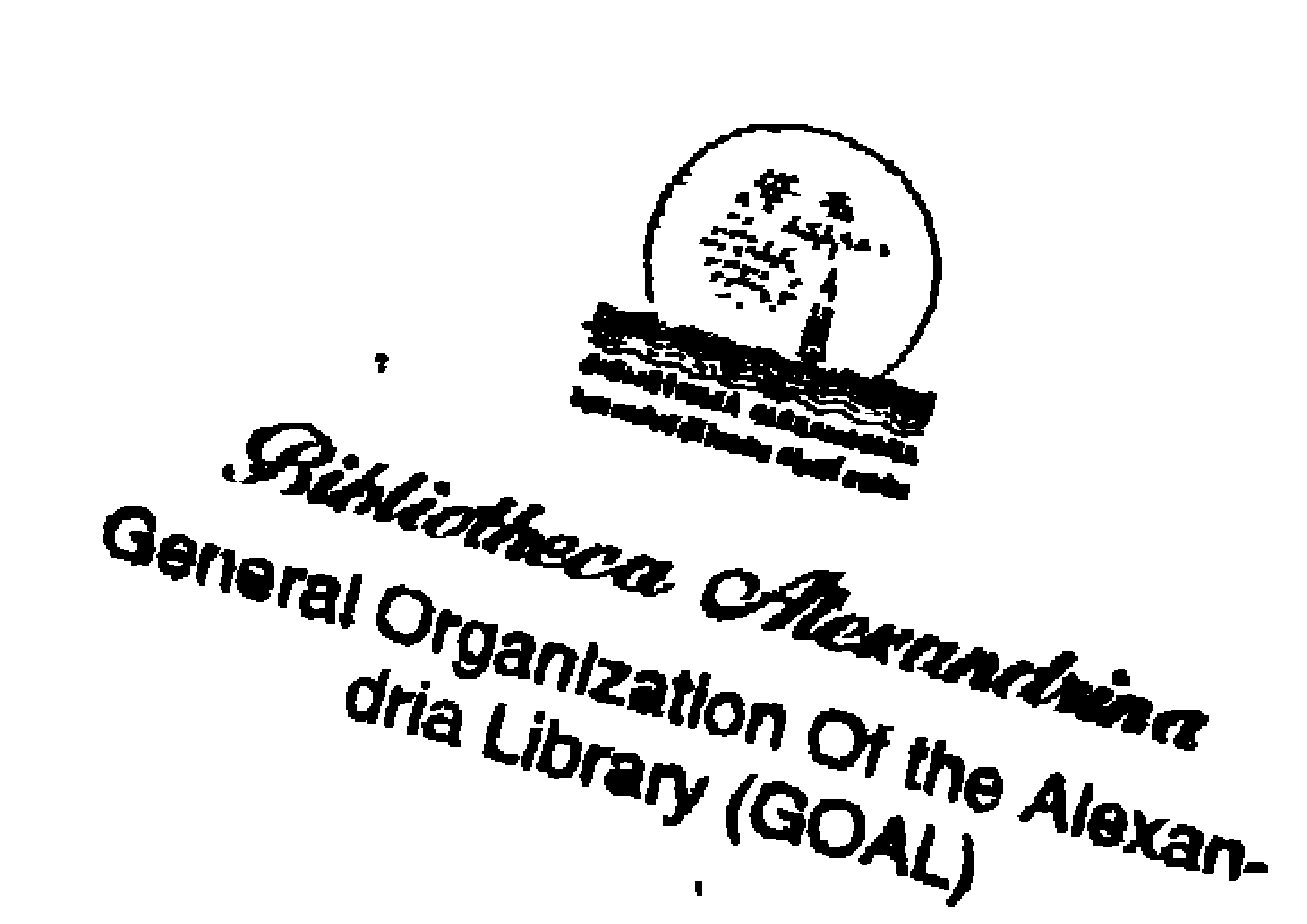
ولنمش مهللين حتى الموت (القديس يوحنا بركمنس) .

اللهم إنك تملأ نفسى غبطة بكل ما تصنعه (القديسة ترزيا الطفل يسوع) . (راجع المزمور ٤٦ ، ٥ و ١١٦) ، (والاقتداء بالمسيح كتاب ٢ ف ٣) .

« امتلئوا من الروح القدس ، متحاورين فيما بينكم بمزامير وتسابيح

وأغانى روحية ، ومرنمين ، ومرتلين فى قلوبكم للرب ، وشاكرين كل حين كل شىء ، باسم ربنا يسوع المسيح لله الآب» (أفسس ، ٥) .

« إنّ ما ينبغى أن نطلبه من الله إنما هو الفرح . فنحن فى أمسّ الحاجة إليه ، لكى نتقدم دائماً ، ولا شكّ أننا نلاقى فى طريقنا مصاعب كثيرة ، وأننا لا نسير دائماً فى أرض سهلة ، ممهدة ، غير أنه لا شىء يقدر أن يحزن أو يحق له أن يحزن نفساً تخصصت بالله . . لا المرض ، ولا الفشل ، ولا الاحتقار ، ولا التجارب نفسها » (الأب جينهاك ، حياته ٣٥٦) .



خاتمة

« ما أسعد الناس ، حين يشغل حياتهم حلم جميل ، فإنهم يصلون الليل بالنهار ، مجاهدة فى سبيل تحقيقه ! »

فعلينا أن نسعى وراء حلم جميل ، ووراء مثال أعلى لا يستطيع أحد أن يوقفنا ، دون تحقيقه والبلوغ إليه .

أما حلمنا ، فهو أن تصبح حياتنا كلها محبة . . . فنكون ذوى نفوس كبيرة وجميلة كنفس يسوع المسيح ، ونحيا متحدين به ، لمجد الله وتعزيته ، فى الحياة الحاضرة وفى الأبدية .

نفس كبيرة وجميلة ، ذلك عمل الأعمال جميعها ، العمل المؤكد تحقيقه ، العمل غير المحدود ، الذى هو أبقى الأعمال ، وأكبرها عزاء ، وجزاء ، وأكثرها تفريجاً وتشريفاً ، لا شىء يوقفه ، بل كل شىء يعاونه ، حتى المصاعب والمعاكسات نفسها ، وهو خير الأعمال عاقبة ، لأنه يلتمس قلب الله . وسبيله إليه إنما هو كبر النفس وجمالها .

إننا نعمل وننجح ، ما دمنا فى سلام وفرح ، لأن السلام والفرح يمثلان ، وحدهما ، أسمى فلسفة وأعلى نظام ، ولأن السلام والفرح الدائمين يدلان على أن فى الروح وفى القلب مبادئ سامية واستعدادات رفيعة .

وما تلك المبادئ إلا مبادئ الإيمان ،

ولا تلك الاستعدادات إلا ما نبع من أنقى المصادر الفائقة الطبيعة .

الفرح الدائم هو ممارسة دائمة للإيمان الحيّ وللثقة البنوية ، والحب السخيّ الخالص ، وإلا فلا يكون الفرح ممكناً . . . على أنه بالإيمان يصبح طبيعيا ، لأن الغلبة للإيمان (عبرانيين ف ، ١١ : ٣ — ٣١) .

« الغلبة التي نغلب بها العالم هي إيماننا » (١ يو ، ٥ : ٤) .

تم طبع هذا الكتاب
على مطابع دار المعارف بمصر



منشورات المعهد

المعادى

قائمة الكتب التى صدرت فى هذه المجموعة

١ – درب القداسة — تعريب : الأب جبرائيل عقيق اليسوعى

٢ – الحياة الكاثوليكية فى عالمنا الحاضر — تعريب : الأستاذ بطرس كساب

٣ – التجسد — تعريب : الأب لويس أبادير

٤ – القديس باسيليوس — تعريب : الأب جبرائيل عقيق اليسوعى

٥ – القديس غريغوريوس النزينزى — تعريب : الأب جبرائيل عقيق اليسوعى

٦ – القديس أثناسيوس — تعريب : الأب أنطون نحال

٧ – القديس قبريانوس الإفريقى — تعريب : الأب جبرائيل عقيق اليسوعى

٨ – الكنيسة أمام المشاكل الاجتماعية — تعريب : الأستاذ أنطون مطر

٩ – القديس يوحنا الذهبى الفم — تعريب : الأب روفائيل نخلة اليسوعى

١٠ – دعوة المسيحى — تعريب : الأب جبرائيل عقيق اليسوعى

١١ – الفداء — تعريب : الأب لويس أبادير

١٢ – القديس أغسطينوس — تعريب : الأب جبرائيل عقيق اليسوعى

١٣ – القديس كيرلس الأورشليمى — تعريب : القمص بولس سمعان

١٤ – النعمة — تعريب : الأب رفائيل نخلة اليسوعى

١٥ – المسيحية والشيوعية — تعريب : الشماس عزيز حبيب

١٦ – تاريخ الكنيسة — تعريب : الأب جبرائيل عقيق اليسوع

١٧ – القديس غريغوريوس الكبير — تعريب : الأب رفائيل نخلة

١٨ – القديس أغناطيوس — تعريب : الأب جبرائيل عق

١٩ – القداس ويليه الفرح وللسلام — تعريب : الأب جبرائيل عقي